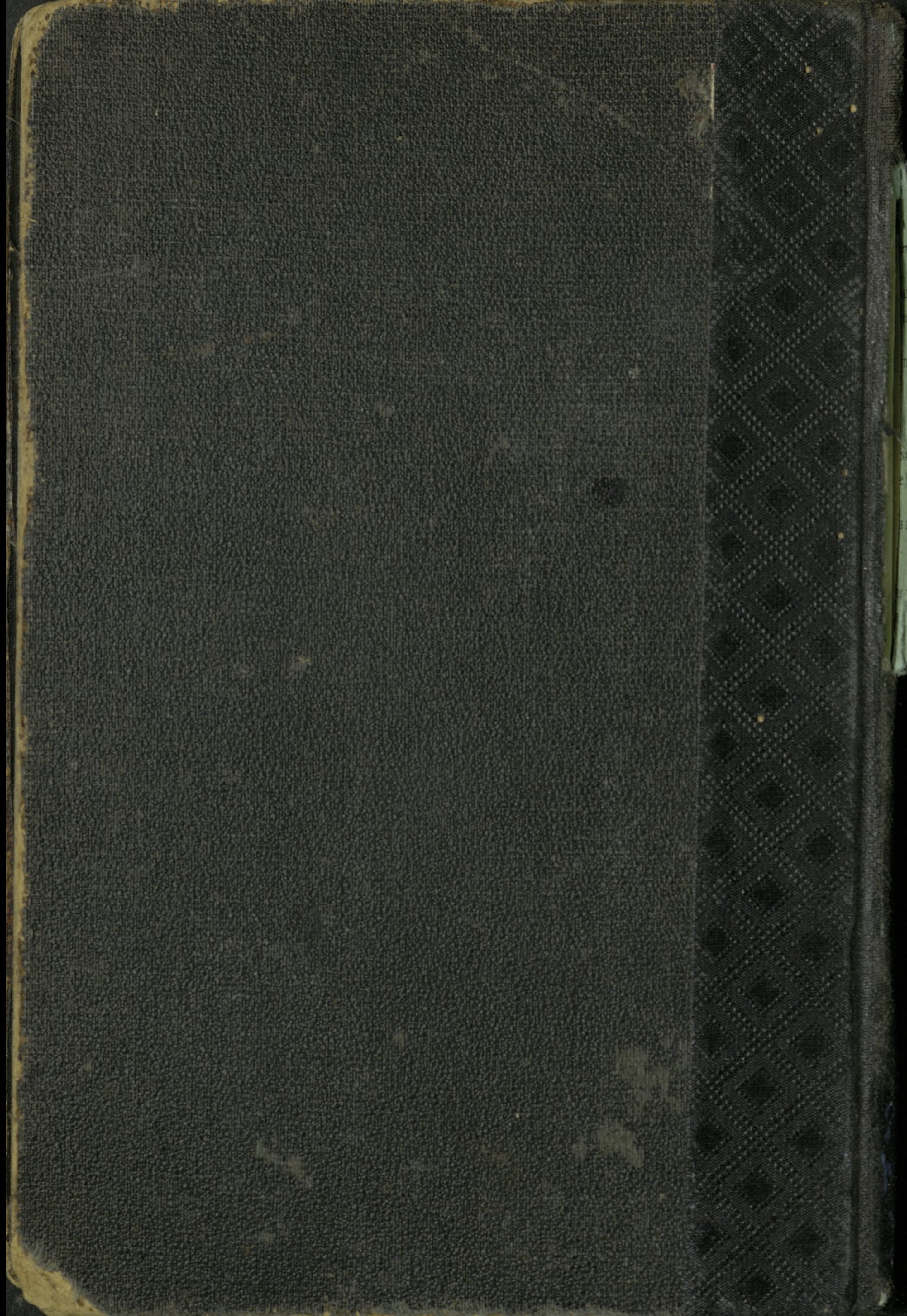



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت
UNIVERSITY
LIBRARY

محاضرات

تاريخ الامم الاسلامية

تأليف

الشيخ محمد الخضري

الجزء الاول

المكتبة التجارية الكبرى – مصر

١٩٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد عهد الىّ مجلس ادارة الجامعة المصرية أن أقوم بالقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الامم الاسلامية فقمت بما عهد الىّ به على قدر ما منحت من العزيمة والوقت، وقد رأت ادارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عامّاً فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها، وها هي ذي تعرض على المؤرخين ورجال العلم، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه

هذا واني أعلن شكري الوافر وثنائي العظيم على مجلس ادارة الجامعة لما نلته من ثقته حتي اعتمد علي فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى واخلاصي رجل الهمة والعزيمة الامير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس ادارة الجامعة الذي بثاقب نظره وقوة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو الى الامام فأسال الله سبحانه أن يوفقه ويسدده في القول والعمل إنه نعم المجيب

محمد الخضري

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبقاه ذخراً لمصر خاصة وللاسلام عامة وأقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الامير فاروق

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الاولي في التاريخ الاسلامي

مباحث التاريخ الاسلامي — مايلزم المؤرخ — جزيرة العرب و وصفها — شعب قحطان ومقاماته

اذا ذكر الاسلام اتجهت النفس الى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لان تسيح الي ماجاورها من الاقاليم وتؤسس سلطاناً واسعاً يرتكز على دعامة ذلك الدين . فمؤرخ الاسلام يرجع بحثه الي ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً

الاول — الدين الاسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتي غلبها الثبات والصبر

الثاني - تأثيره في النفوس العربية حتي استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الاقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والاعمال حتي عظم قدرها واتسع سلطانها منقاداً الي سلطان الدين

الثالث — ما كان من انتقال هذا السلطان عن الامم العربية الي غيرها من الامم التى دانت بالاسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الامم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب لم يكن

النا بد من ذكر مقدمة اجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الاسلام لتكون أمامنا منهم صورة تمهد لنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين : الا أنا سنقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فان عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتي ما أدى منها الى سقوط فاعله وخيبته وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شراً ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الامم الا نفر قليل جداً . واذا نظرنا الى أنفسنا نجدها لا تحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ما تستحق فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا ، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله : نحكم على متصدق بالتبرير لانه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغده ولا نأبه بتلك الصدقة نفسها من آخر ، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل اليه الانسان الا بعد عقبات شديدة لابد له من اجتيازها ان كان المراد تمثيل الامم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم ان كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا الا أن نعرفه ونستفيد منه وان كانت أصابت المحجة فان ذلك لا ينفعنا اذا لم يكن لنا مثل أعمالهم

لذلك يحتاج دارس التاريخ الي سعة صدر تحتمل كل مايرد علي تاريخ قومه من نقد حتي لاتبقي حقائق الاشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض.

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الارض التى نشأوا فيها جزيرة العرب مع أنها لم تتم احاطتها بالماء كما قال ياقوت(١) في معجم البلدان نقلا عن هشام(٢) بن محمد بن السائب عن ابن عباس(٣) انما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات (٤) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين(٥) ثم انحط على اطراف الجزيرة وسواد العراق حتي وقع بناحية البصرة(٦) والابلة(٧)

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومى الاصل أسر من بلاده صغيرا فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتبا نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الادباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب

(٢) نسابة عربى له كتاب الجمهرة في النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفي سنة ٢٠٤ (٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد الملوك من بني العباس من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨ (٤) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى اذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معا فى خليج عمان من بحر الهند (٥) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسما لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ ه (٦) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريبا من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ ه (٧) بلدة على شاطئ النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة

وامتد الي عبادان (١) وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتي منها علي سفوان (٢) وكاظمة (٣) الى القطيف (٤) وهجر (٥) وأسياف البحرين (٦) وقطر (٧) وعمان (٨) والشحر (٩) ومال منه عنق الى حضرموت (١٠) وناحية أبين (١١) وانعطف مغربا منصبا الى دهلك (١٢) واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان (١٣) وحكم (١٤) والاشعريين (١٥) وعك (١٦) ومضي الى جدة (١٧)

---

(١) مدينة فى الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة الى عباد بن الحصين وكثيرا ما ينسب اهل البصرة باضافة ألف ونون الى آخر المنسوب اليه (٢) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو اول منزلة بجادة البصرة الى البحرين (٣) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية فى جادة البصرة الى البحرين (٤) مدينة بالبحرين وهى قصبتها (٥) مدينة بالبحرين وقيل هى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (٦) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هى وعمان فى ايام بنى العباس عملا واحدا وسيف البحر ساحله (٧) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (٨) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهى الى البحرين وقصبتها مدينة صحار (٩) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٠) ناحية واسعة في شرقي عدن وحولها رمال الاحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١١) مخلاف باليمن منه عدن (١٢) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بني أمية (١٣) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى (١٤) قبيلة قحطانية تنسب الي حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب اليهم أبو نواس الحكمى (١٥) قبيلة قحطانية تنسب الى الاشعر ابن ادد من كهلان بن سبأ ينسب اليها أبو موسى الاشعرى (١٦) قبيلة قحطانية تنسب الى عك بن عدنان من الازد ثم من كهلان (١٧) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها و بين مكة مرحلة

ساحل مكة والجار (١) ساحل المدينة ثم ساحل الطور (٢) وخليج أيلة (٣) وساحل راية (٤) حتي بلغ قلزم (٥) مصر وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتي دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتي بلغ بلاد فلسطين (٦) فمر بعسقلان وسواحلها وأتي صور (٧) وسواحل الاردن (٨) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطا على أطراف قنسرين والجزيرة (٩) الي سواد العراق

وهذا التحديد وان كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضي أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضي عند المؤرخين فانهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام

---

(١) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع (٢) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم وهي كورة مصرية (٣) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة (٤) كورة من كور مصر البحرية (٥) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدىء من المندب وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والاولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بور سعيد (٦) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت المقدس ومن مرافئها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن مرافئها عسقلان (٧) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (٨) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (٩) هى الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمي جزيرة أقور

وفلسطين فهذان خارجان عنها وان كان العرب قدسكنوا قبل الاسلام جزءاً مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول ان هناك تسامحا فى اطلاق لفظ الجزيرة على البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبعية

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :

تهامة — الحجاز — نجد — اليمن — العروض

فأما تهامة و يقال لها الغور فهي الاراضي التى على شاطيء بحر القلزم ممتدة عرضا الى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحر اذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصي اليمن الى الشام فى عرض أربعة أيام (١) يزيد كسر يوم في بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فمبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقي عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام و تقطعها الوديان في بعض جهاتها، وانما سميت حجازاً لانها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل الى شرقيه يبتدي جنوبا من أدني حدود اليمن وينتهى الى السماوة و ينتهي من الشرق الى العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لان محيط الارض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الاربعة أيام ١٤٢ ك تقريبا

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد الى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا الى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمي عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجري فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية الاطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الاقامة فيه حيث يجدون ما يشربون وما يسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى في بلاد بني تميم ببادية البصرة يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعجا ثم في غطفان فيسمونه الرمة، وهو أول نجد ويصب في الرمة أودية أخري أكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بني فانه يحسيني   الا الجريب فانه يرويني

ثم يمر في بلاد طيىء فيسمونه حائلا وهو واد في جبلي طيىء ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سوديَ واذا انتهى اليهم عطف الي

بلاد كلب فيصير الى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها، طيبة التربة طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها مايقطع السراة حتى ينتهى الى البحر ومنها ماهو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة الي البحر وادي مور وهو ميزاب تهامة الاعظم ويتلوه في العظم و بعد المأتي وادي زبيد، ومن أعظم الوديان المتجهة الى الشرق ميزاب اليمن الشرقي وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى الى موضع السد سد مأرب ويسقي بعدها أرض الجنتين أرض السبئيين. وهناك وديان كثيرة في الحوف بين الجبلين

العرب تسمي المواضع التي يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم خاص بما يكون في الارض الواطئة فان كانت في أعالى البراق (١) والقفاف (٢) فهي السلقان واحدها سلق واذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لايسرع اليها الهيج والذبول واذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمي (٣) ربعت العرب ونعمها جمعاء وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا في ميل فاذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق، قد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ماارتفع من الارض ولم يبلغ أن يكون جبلا (٣) الوسمى أول مطر يصيب الارض والثانى يسمى زمنالولى

ذراع وكل روض يفرغ اما في روض وأما في واد: وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف، وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء

ولما كانت مياه هذه الاودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يغيض في باطن الارض فلا يمكنهم الانتفاع به الا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها الا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها الى جهة ثم تبني سداً محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب الى رمال الصحراء ويغيض في الارض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعدة لان يزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الاشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فان شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروى الا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ في بعض سهولهم القريبة من الوديان — وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الاودية، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لان الكثير من مائه يغيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وانما يتبعون مواقع القطر أني كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتهم

وحاجة العرب الدائمة الى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة الى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان ـ بحكم الضرورة ـ عدم الاعتماد على ماتنبته الارض من المزروعات الدورية التي تصلح للانسان كان جل اعتماد أهل البادية على أنعامهم ولا سيما الابل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحاري المقفرة الى مايرومون من الجهات

أما بلاد اليمن فانها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرى في الجزيرة لان تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البلاد

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال اذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصا الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للاودية ومسايل المياه فان الهواء يكون به معتدلا وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف أما الربيع ففيه المطر الكثير

والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

محاجّ الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبري الى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمي محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فانهم اذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر الى البصرة أو الكوفة فان لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذه الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفي سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الاميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك .

ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها الى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة الي مكة وهي تفارق الاولي من معدن النقرة في الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة الي مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذى يلى منزلة النباج وجادة البصرة الي مكة ولا تمر بالمدينة

ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ :

وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالاولي

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة

ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة ومنها السفلي وتتقابل مع محجة صنعاء في تباله وتمرّ على نجران

ومنها محجة البصرة الى البحرين على ساحل خليج عمان (أنظر الخريطة)

﴿الشعوب العربية﴾

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين الاول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك: ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيىء ومذحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الاوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام:

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف الى اسم القبيلة التي اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون منهم قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف في الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الارض أو في البحر فأقاموا بمأرب سداً وصفه ياقوت نقلاً عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فكان الاوائل

قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص، فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بابواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الازمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول ان هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد، لان كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال ان الهجرة انما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الارض والمزارع ولم يمكنهم اعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأي الاخير لسببين:

الاول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصا انه سائر الى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا

له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأي العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الازد من كهلان خرج هو واخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الازد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الروّاد ثم ساروا بعد ذلك الى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بني اسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسوا النخيل ، ومن ابناء ثعلبة هذا الاوس والخزرج ابنا حارثة ابن ثعلبة

وانخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو ـ وهو خزاعة ـ بمن معه فافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم

وعطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها من طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الازد ـ وهم قبائل كثيرة ـ نحو تهامة وهم ازد شنوءة

وسار جفنة بن عمرو الى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو ابو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الازد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بني ادد بن زيد قبيلة لخم بن عدى الذين

منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا – عمرو بن عدى بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضاح

ومنهم طيء: ساروا بعد مسير الازد نحو الشمال حتي نزلوا بالجبلين أجأ وسلمي لما رأوه هناك من الخصب، وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادي الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر: قال شاعرهم عارق الطائى

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة ... اذا استحقبتها العيس تنضي من البعد
أيوعدني والرمل بيني وبينه ؟ ... تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولى رعان كأنها ... قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الاراضي العربية من الشمال والغرب

وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد، منهم الملوك والاقيال



المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه — معيشة العرب من بدو
ومن حضر — حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من ارض الحجاز وتهامة فان عدنان — باجماع كلمة المؤرخين من العرب — ينتهي نسبه الي اسمعيل بن ابراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه والى أبيه بناء البيت الحرام (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء اسمعيل بمكة تتناسل هناك حتي كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه أياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الاسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفصى ومنها بكر وتغلب ابنا وائل، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا الجيم

وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين قيس عيلان بن مضر، وبطون

الياس ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان: ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغني بن أعصر

وافترقت أولاد الياس فمنهم بطون تميم بن مر وهذيل بن مدركة وبنو أسد ابن خزيمة: وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتي من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم: وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد على بن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا ان البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - الى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء الاسلام، وذلك الامير هو المنذر بن ساوي من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر الى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الاعشي

من ير هوذة يسجد غير متئب ... اذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها ... صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوج معدى قط وانما كانت التيجان لليمن. فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال انما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسري في جنبات اليمامة.

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الارض من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة، إلي البحر فأطراف سواد العراق فالابلة فهيت

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكراً

وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى الى خيبر، الى شرقي المدينة الى حد الجبلين، الى ماينتهي الى الحرة فتلك ديارهم لا يخالطهم الا بعض الانصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس — وهي على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش الا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى نبغ

فيهم قصي بن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم و رفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة الى مساكنهم - الى حضر وهم سكان المدن وبدو، وهم الذين يقيمون في البادية. انما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم الا في ذلك الجوّ الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الاعراب، وهو ماستتبعه و يغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو مايسمي بالعنجهية

أما الحضر: فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون انها أقدم مدينة على وجه الارض، وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفي شمال اليمن مكة: وهي تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر: وفي نجد حائل وفي العروض حجر - قصبة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسري والنعمان لطائم يرسلها الى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الاعراب كبير من كبار العرب تحمل البز

والثياب وما تحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام في زمن الصيف! والاخري لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافيء تجارية كبيرة ولم يعرف للامة العربية نقود كان بها التعامل، وانما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الامم عنها حتي أن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة واذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لانجده اكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف ! وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لان القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح له من النعال وغيرها، وكذلك حياكة الثوب : ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ـ وكانوا يرجعون في صناعة البناء الى عمال من الروم اوالفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

أحوال العرب

قد حصرنا أحوال هذه الامة التى تمثلها لنا اكبر تمثيل في الاحوال الاجتماعية والادبية والسياسة والدينية، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد

منهم من العلاقة بأهله و ولده و بني عمه دنيا: ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالادبية ما كان لهم من الاخلاق التى توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها، ونعني بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم اوالتبعة لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله — ونريد بالاهل خصوص الزوج

يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف او إهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نري الامر على العكس من ذلك فقد كان الرجل اذا أراد ان يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته الا المرأة التي ان رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه، وتري ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائى شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان ثم انظر الى اي شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثاً امرأة من قومه بانه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة؟

تراه اذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما تجيب به مخالف فى الرأي

ألم تعلمي - ياعمرك الله أنني كريم على حين الكرام قليل؟

أو لاتري أن جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون

بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم - لا يذهبون الى شيء من ذلك حتي يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الالقاب فيقول أحدهم

يا ربة البيت قومي - غير صاغرة ضمي اليك رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه

سلى الطارق المعتر يا أم مالك اذا ما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي وهو أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها الا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وبالجملة فان المتتبع لاشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والاهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم الى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم الى آبائهم وكانت المرأة فيهم اذا أرادت فرقت، وان شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها للسلام سعت اليه ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر أشعلت النار بين الاحياء

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في ابان الحرب بين عبس وذبيان - أتراني أخطب الى أحد فيردني قال نعم: أوس بن حارثه بن لام الطائي، فقال الحارث لغلامه هييء لى مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة، حتى أتيا أوساً فوجداه في داره فلما رأي الحارث رحب به وسأله عن مجيئه، فقال جئتك خاطباً فقال أوس: لست هناك فانصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من

رجلٌ وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فمالك لم تستنزله قال انه استحمق جاءني خاطباً قالت أفتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذالم تزوج سيدالعرب فمن قال قدكان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له انك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب الا ماسمعت فانصرف ولك عندي كل ماأحببت فانه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لى فلانة لكبري بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالبا خاطباً وقد أردت ان أزوجك منه، فقالت لاتفعل لاني امرأة في وجهي رَدَّة في خلق بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يري مني مايكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك مافيه، قال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني مايكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ماتعلم، ثم دعاالثالثة وهي بهيئة صغراهنّ فلما عرض عليهاقالت انت وذاك فاخبرها باباء اختيها فقالت لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت اليه في بيت ابيها فلما خلابها واراد ان يمد يده اليها قالت مه أعندأبي واخوتي ?هذاوالله مالايكون فارتحل بهاحتى اذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت أكما يفعل بالأمة الجليبة او السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل

مايعمل لمثلي فرحل حتي اذا وصل ديار قومه أعدلها مايعدّ لمثلها فلما اراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لايزوج بناته الابعدان يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا ان ندعي ان هذا كان امراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعامل من جمهور الأمة لأن وجود افراد هذه معاملتهم لايحتمل ان يكون برهاناً على ان هذا خلق عامتهم كيف ونحن في بيئة لانعدم فيها من يرفع زوجه الى اعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم ان احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذي يمكننا ان نقوله هو ان ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعاً من العمل بل كان شيئاً لاتنفر منه طباعهم . يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ولكن لايجسر ان يخالف التقاليد العامة يوماً فيكتب في احدى الجرائد قلت لامرأتي واستشرت امرأتي في زواج بنتي فكان مني ومنها كيت وكيت لوقال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

ومن ذلك يمكننا أن نقول ان علاقة الرجل العربي بأهله كانت على درجة من الرقي أكثر مما يخيل الينا وكان لها من حرية الارادة و نفاذ القول القسط الأوفر

وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة في الاسلام وهي مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأي إلا أن الرجل كان يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ماعليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوي الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان او مكان لم يكونوا يطلقون عليها الا السفاح واتخاذ الاخدان ولم يكن ذلك أمراً مستحسناً عند جمهورهم اذ المعروف عن العربي - من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال ان الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه الانواع تلك المسافحات

وكانوا يعددون بين الزوجات الا أنه لم يكن هناك حد معروف اليه ينتهي الأمر في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح ان غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل الا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج ان تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان اذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فاذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الاولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم ان تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة وان كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمد على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال عنترة

اني امرؤ من خير عبس منصباً　　شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف حتي كانوا اذا امنوا على أولادهم ذكروا في اول ذلك انهم تخيروا امهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعاً من الاجتماعات: كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم انه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين أنه انما كان يحبها و يتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه في غزواته

أما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعاً حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الاولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وانما أولادنا بيننا　　أكبادنا تمشى على الارض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم اذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ولم يكن هذا في جميع العرب، بل كان في بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع الا في طبقة منحطة منهم لأن ذلك انما كان يفعله منهم خشية الفقر والى ذلك الاشارة في قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم) وكان هناك من أشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه وكان

يشتري البنات ممن يريدون وأدهنّ بنوق تذهب عنهنّ الفقر والخوف منهُ وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك ان نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة العربية بل انما تعد على أولئك الافراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيهِ وبني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها أنصر أخاك ظالماً او مظلوماً: وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه: أماهم فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقص من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جرّاء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... عند النائبات على ماقال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس انسانا

واذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدي القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الاخري ، وهذا الحلف قد يعقده الافراد وقد يعقده رؤساء القبائل والامر واحد في الحلفين

بينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الاوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراه في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماما بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم والسبب في ذلك يرجع الى أمرين

الاول — التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد فانا نعلم ان حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهي محل نزاع دائم لانه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء : واكثر ما يبتديء ذلك النزاع بين رعاة الابل القائمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء اولاً او في نفس المراعي فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بداً فينتزح أحد الاخوين عن داره مرغما الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا

يكون ذلك الا بعـد ان يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، واذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى: وهـذا أمر نشاهـده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الامام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامام الشافعي ، فاستغربت ذلك ! وسألت ذوى الاسنان منهم عن سببه ، فاخبروني أن أهل هـذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذى يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني — تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك اذا مات أكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضا تزيده الايام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه مافيهما من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد! كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة و بين عبس، وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة، ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نري الحروب الهائلة والايام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف انما كانوا فى بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي و يقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر واطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد اذا حكم الحكم لاحد الفريقين لان ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً

واذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانه قال لهما انتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجد له شاعراً يلهبه ويريد في نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية فانه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامرا ويزعم ان الحكم قضي له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخري واذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيله بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى انا اذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته حتي أنك لتري القبيلة المعترف لها بالتبريز فى السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحى الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتي وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لايحتاج شبوب

نار الحرب بينهما الى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها أمورا يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه

المحاضرة الثالثة

﴿حال العرب السياسية﴾

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمين القسم الاول منهم ملوك متوجون الا أنهم يرجعون الى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين * القسم الثاني: رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز الا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوّج

﴿القسم الاول﴾

«الملوك المتوجون»

ملك اليمن

اذا نظرنا الى المولعين بارجاع التاريخ الى الازمان المترامية الى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون

فانهم انما يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئاً يقولون ان قحطان بن عابر المعبر عنه في التوراة بيقطان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الارض خلاء ويتبع هذا الكلام انه كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة انه كان ملكاً على نفسه او على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون ان الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من اخوته وبنيه والمسعودى صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ يقول فيه ان اول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر انه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم انه غزا الهند ثم رجع الى اليمن وعاد فذهب الى بلاد طيى ثم على الانبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه الى أذربيجان فغزا وغنم * ويروون عن ابنه ذي منار انه غزا بلاد الغرب وذهب الى أقصاها وان ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنماً من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك احد * وان تبعاً دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ماوجد بها وخلف بالتبت اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل الا اذا ضحي جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي (المتوفي سنة ٨٠٨) في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدا والخبر ، وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزرى المتوفي سنة ٦٣٨ .

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وان الرئيس منهم انما كان رئيساً على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فأن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وان بعدت مسافة سيره من مخلافه فانما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذي يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فأذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمرّ به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً الى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدي له خرجاً

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وانما كان يكون لواحد منهم بعد الواحد وبين الاول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الاول منهم والآخر ، اذ لم يكن من الامر الدائم فان دام شيء فانما يدوم لمن دام له منهم لانه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا يملك

بنفسه اه

فالظاهر ان قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في انحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان من يوسع سلطانه الى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الامر الى ما كان عليه اذا ضعفت قوة المتغلب في حياته او ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع و يضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه

غير ان مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه الى ماوراء مخلافه بما يتاح له من القوة فاذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره، حتى أذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب اوفي أيام أبنائه عاد الأمر الى ما كان عليه و رجع سلطان المخاليف الاخرى الى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالاقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين و يجعل للسابق مدة حكمه والفترة التى كانت بينه و بين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة او اكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك اسرائيل

ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على ان ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت المملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل اليها مهدداً (إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الاصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع، وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن اذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذو نواس وكان يهوديا فرأي ان بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣م فلم يكن من ذي نواس الا ان مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية ان ينتقم من ذي نواس فبعث اليه قائداً حبشيا اسمه ارياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذونواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل ارياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد ان استرضي ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد ان يصرف الناس عنها الي بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الامراض الثقيلة وقد بينها

ابن هشام(١) في سيرته بأنها الحصبة والجدري: وروي ان هذا كان أول حصولهما بمكة فعاد منهزماً وتوفي بعد عودته وأشار القرآن الى هذه الحادثة في سورة الفيل

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق

كان في ذلك الوقت من اولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع الي نيل الملك ولا يقعده الا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري فرأى من الضروري ان يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس، ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد بملك الفرس وهو كسري أنوشروان فوعده كسري خيراً ثم شغل عنه حيناً من الزمن حتى مات سيف (٢) فذهب ابنه معديكرب الي كسري يستنجزه وعده فاشار على كسري كبراء دولته ان يعين معديكرب لما كان لهم من الامل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الابلة وقطعوا خليج عمان حتي أتوا شواطي حضرموت فنزلوا من احدي فرضها وتوجهوا الي صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توج وهرز معديكرب ملكاً علي اليمن وأبقي معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالابناء وينسب اليهم فيقال ابناوي

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد ابن اسحاق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد في السير

(٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفاً هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعوده الملك ، وممن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان معديكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعاً يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي كان على عهد الفتح الاسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب الى الاسلام فجاء الاسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عاماً بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا ، كما كتب الى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان ، وكما كتب الى الحارث ابن عبد كلال وأخيه * وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد ان انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهي ان يسجل على بلاد فارس ضعفا ابديا لا يتمكنون معه من اعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فان ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف

يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم الى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية اودولة الاكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا اجزاءاً مهما من ريف العراق كان قبل ملكاً للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع الى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سبباً في رحيل جمع من قضاعة الى الشام: ودان له أهل الحيرة والانبار وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وما ئر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى انه يستحيل عليه ان يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة على تخوم ملكه الا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده ويمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر انها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة

ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمي عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به الى بلادها وقتلته وكان له ابن اخت اسمه عمرو بن عدي فأراد ان يأخذ منها بالثار فأعمل الحيلة الى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمي قصيراً فسار قصير اليها حتي عرف مداخل مدينتها وما عملته فى قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر علي الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما ادركت جلية الامر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فادركها عمرو فمصت سماً وقالت بيدي لا بيد عمرو ، ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج، و يقولون ان الزباء هذه كانت ملكة علي تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها اذينه من بني السميدع الذين سكنوا بلاد العراق و براري الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر اوولياُنس وقهروها وأخذوها أسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك في المدة بين سنتي (٢٧٠) (٢٧٣) م وموت جذيمة كان حوالى سنه ٢٦٨ م

و بعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م الى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلي ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة الا ان الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد. وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أردشير ولم تزل الملوك من بني

نصر تتوالي علي الحيرة حتى ولي الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الاباحية في بلاد الفرس علي يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فارسل الي ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه الى ان يكون علي ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولي بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي الذي كان اميراً على قبائل بكر بن وائل وفده ملكه بعد ان أجاب دعوته الي المذهب المزدكي

ولم يزل ملكا حتي مات قباذ وخلفه كسرى انوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً بالبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس واعاد المنذر الى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالانبار وبها منزله فهرب باولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وأياد وبهراء فلحق بارض كلب فنجا وانتهبوا امواله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا　　　وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في ديار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجرا على بني أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد من تميم . ولم يكن

هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثار ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه الى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك الي المنذر بن ماء السماء استمرّ في عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر المكني بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتدّ غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الامر وأيقن انه هالك ان توجه الى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذا قار ونزل على بني شيبان سراً فلقي هانئ بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانئ وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان ان يرفع اليه أهله لذلك وعلم ان هانئاً يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه الى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيئ وأمره أن يرسل الي هانئ بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانئ حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياساً أن يسير اليهم بالجنود ومعه مرازبة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانئ يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا الى الفلاة فأسرع الناس الى ذلك فقام حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال

ياهاني ء أردت نجاءنا فالقيتنا في التهلكة وردالناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفرّ حتى تفرّ القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم، وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فأنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك الي آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته الى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق

جاء الاسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً، كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج واذا شاء ملوك الفرس أبقوه وان شاءوا عزلوه. ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وانما كان اسمياً لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان أحياناً ينتصر عليهم اذا أقاموا في اماكنهم وأحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويحتمون ببواديهم فلا يمكنه أن يتبعهم

ومما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوما لجلسائه هل تعلمون احداً من العرب يأنف ان تخدم أمه أمي قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم

التغلبي فان أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسه ثم أرسل الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور أمه هنداً بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو ومع هند في القبة وقد قال ابن هند لأمه اذا فرغ الناس من الطعام فنحي خدمك عنك فاذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها ان تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبيين

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق

فقام ابن كلثوم الي السيف مصلتا وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم في معلقته

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا

تهددنا وتوعدنا رويداً متي كنا لأمك مقتوينا

فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

﴿ المحاضرة الرابعة ﴾

الملك بالشام — الامارة بالحجاز — الحكم عند الاعراب

الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن الى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت الى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم ان يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد ابن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة الى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهداً طويلاً يلون أمر العرب حتي أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكاً على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الاسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبني جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيراً ما يمدحهم لأنه ينتمي إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر مارية الكريم المفضل

يغشون حتي ماتهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أُباغ (وهي وادوراء الانبار على طريق الفرات الى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الاعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لانه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعني أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الاسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشاً تحت قيادته وسار الى ان أتي مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضاً

الامارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاة من جرهم قحطان ـ وهي جرهم الثانية ـ ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه ابراهيم صاهرهم : وكان لاولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء * ولما ارتحل

الأزد من مأرب بعد السد، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثه بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وولیت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بمكة أولاد فهر ابن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنتهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة، ولما لم يبق الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة الا بالقوة التي كونها من عصبية فهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والامر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد اليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة * ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لانها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الامور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية لحرب الا بيده ؛

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعني السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها اذا وردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد في حياة أبيه فأراد أبوه ان يلحق به ابنه عبد الدار الذي كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بني العم ، وسببه المنافسة في الشرف وافترقت قريش فرقتين : فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبد الدار ، وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، ولبني عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ، ومن بعده بنوه حتي جاء الاسلام والأمر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخري لا تساوي هذه في العظم وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء

القبائل المختلفة من قريش حتى لايكون هناك مجال للنزاع وهذا ماحفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال، الا أنهم وان لم يصابوا بعصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد، اذا كان لكل واحد مايساعده على الشرف والرئاسة، وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبدشمس، فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه، وكان أمية مثرياً من المال والولد، ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش، فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الاسلام، ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً الى حد شبوب القتال بينهم لان البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه، لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامى الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فان مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ اليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع الى هذه الاسواق من جهات العرب كافة لانهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فاذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم: فمن هنا كان التحكيم في الامور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده ومما امتازت به قريش حلف الفضول، وكان مداره على أن ترد كل

مظلمة بمكة الى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره، وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام - تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم :

— كانت القبائل في نجد: ما كان منها بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة: وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام، الا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكما ملوكيا يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال وأعظم مسوّد كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء! تقيم بأقامته وتظعن بظعنه، واذا دعا الحرب لا تتأخر عنه واذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفيّ والنشيطة والفضول: فالمرباع ربع الغنيمة والصفيّ ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل الى بيضة القوم، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما: قال بعض الشعراء يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا　　وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه، فاذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر، وبيت تميم في بني دارم، ومركزه حاجب ابن زرارة، وبيت ربيعة في آل ذي الجدين، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني: وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم الا أنهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم اذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب! وكان في بعض الاحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خرجاً كل سنة، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس -من قيس مع هوازن، وهم بطون من قيس فانهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ، وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمي -سيد عبد القيس: وتميم بالبحرين

وعلى الجملة: فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم الى بذل الندى واكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين: والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو!!

المحاضرة الخامسة

﴿الحال الأدبية﴾

الاخلاق — اللغة

الاخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة، وقد اصطلح الكتاب على أن يقصر لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الاخري كالمشي واللعب النظامي

عموم الخلق

لا يحسب الخلق على الامة الا اذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشي لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الامم التي بها تستحق السقوط والخذلان أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لان الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة : فان كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم، كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم الى الامة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ

عد هـذا الخلق على الامـة : كذلك لا يحسب الخلق للامة الا اذا كان فاشياً بـين أفرادها مألوفاً عنـد جميعهم لا يخالفه أحـد منهم الا مستسراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هـذه القاعدة نسير في بيان الاخلاق عند العرب

من الاخلاق التي كانت للعربي سرعة[١] الانفعال والاقدام على المـكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه الا الى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مسّ شرفه فتجده زأر كالاسـد خرج من مكمنه لا يتريث حتى يستطلع جلية الامر ، بل يقـدم منـكباً عن ذكر العواقب جانباً ! وهذا الخلق أكثر ماتراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ، ولا احكاماً قاسية من جرّاء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس اذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الـكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمـة وأرقاها درجة في التأثير : يالفـلان واذلاه ! وانصيراه ! شرف الآباء ! وماشا كل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعـل صاحبها يألف سماع مايهين شرفه حسبما يتخيل و يتبع هـذا الخلق الجرأة على سفك الدم ! لان النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تـكـتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه

ومن هنـا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً ألّلهمّ الا في سادتهم وذوي الاسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين

٢ ومن أخلاقهم التعصب : ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية، وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن كليهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

٣ ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به وممتن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال الا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم اليها ويذبحها لضيفه: يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم

واعلم بأن الضيف يو ... م سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحفان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره الى من أعطاه إياه، ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلاً ! فقال لها عليّ الجمال وعليك الحبال، فرمت اليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال

لا تعذليني في العطاء ويسري ... لكل بعير - جاء طالبه - حبلا
فاني لا تبكي عليّ إفالها ... اذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الابل مالاً لمقتن ... ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

﴿ فأجابته امرأته ﴾

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذي ... تكفل بالأرزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصدات أعدّها ... لها ما مشى منها على خفه جمل
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالباً ... فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويري المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والاضياف ـ من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام ـ ما يثلج الصدر

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم : أنظروا الى مافعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرّض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه و يصيب قومه من جرّاء ذلك، ثم انظروا الى مافعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده! وفي ذلك يقول الأعشى مخاطبًا شريح بن عمرو الكلبي

كن كالسموءل اذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتي خسف فقال له ... اعرضهما هكذا اسمعهما حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر، ومافيهما حظ لمختار
فشك غير طويل، ثم قال له ... أقتل أسيرك اني مانع جاري
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... رب كريم وبيض ذات أطهار
فاختار أدراعه أن لا يسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظروا الى مافعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل

بقوس حاجب، والقوس في الحقيقة لايمنعه رهنها من فعل مايشاء إن كان من شميته الغدر، وانما خاف السبة على بنيه من بعده اذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الامة العربية أنهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة فغدر بذي عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأساً بين العرب

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فان خلت منه فبشرها بالخذلان وسقوط لامحيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدماً على الابناء والاخوان . ومن ذلك أن رجلاً من السواقط من بني أبي بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير ابن سلمي أنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمي و بين أخي الجار أسباب أدت الى أن قتله قرين، وكان عمير غائباً فأتى الكلابي قبر سلمي أبي عمير وقرين فاستجار به، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل، فلما قدم عمير قالت له أمه لاتقتل أخاك وسق الى الكلابي جميع ماله، فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادي فربطه الى نخلة وقال للكلابي: أما اذ أبيت الا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي وأرتحل عن جواري فلا خير لك فيه فقتله الكلابي: وفي ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لاعذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فانهم كانوا يخلطون

حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التى عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التى دخل في حلفها وينال ثمرتها، وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أي قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب لهن "كفؤاً" الا من دخل في حلفهم، ومن خلاقهم التى كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه، وباب الحماسة فى أشعارهم أكبر من باب الكرم لان الشجاعة خلق يظهر فى جميع الافراد أما الكرم فانه لا يظهر أثره بجلاء الاعند أرباب الاموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة البأس وقوة القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم أن هذه الامة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم :: ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التى كان العرب يتمدحون بها الميسر !! وكانوا يرون انه سبيل من سبل الكرم لانهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذو واليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار الى عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح - وهي عيدان من نبع قد

نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة، الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد، والثلاثة الاخيرة غفل من العلامات لا نصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلي فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل أمين يقال له أمين المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع فى خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحا: ولنفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الاجزاء الباقية فان خرج التوأم فلصاحبه جزءآن ثم تضرب القداح فان خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه، وإن خرج فى أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فأن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لان فيها مايستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخري يقسمونها كالاولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فأن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان منها النافس، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخري فيكون الباقي ١٤ جزءاً فاذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحاس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان: ثم الفذ وله

واحد فالمجموع ١٢ جزءا ويبقي جزآن يوزعان على الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الاولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهي لمن عدا الرقيب والمسبل، وثمن الثانية الى ١٢ جزءاً لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى، وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الاسلامي وهذه المفسدة هي أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، لان المقامر غافل عن كل شيء

ومن عاداتهم -التي يتمدحون بها- شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس . لذلك تجدها فى الشعر العربي بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ماقيل في شربها من جهة الاسلوب اللغوي قول عنترة

ولقد شربت من بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فاذا سكرت فانني مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم
واذ صحوت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائلى وتكرمي

والشرب -فى وقت عنترة هذا- كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمي الصبوح .

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم ، لان المنفعة كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر

قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الاثم مرة أخري فقال (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخري كانت تدعوهم اليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية احدي اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لاصالتهم في العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت الى مكة واحتلتها قبل أن يردها اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها اسمعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان اسمعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية . أخذ اسمعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لان اسمعيل وأمه لا يمكنهما ان ينسيا بالمرة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة واذا احتاجا الى التعبير عن معني لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان الى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة . والمؤرخون يسمون اسمعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة

العرب الاصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني اسمعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وانما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس، والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الالف لسماع تلك الالفاظ ويحس منها بصلابة لا يجدها فيما يرادفها من الالفاظ الحجازية

معلوم أن للغة انما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها. لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث

الاول — تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ اليه أحياناً وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر، وقد يكون بعض الاسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما نجده في أسماء الاشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وما شا كل ذلك

الثاني — التجوز فقد كانوا ينظرون الى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الاول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسي أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى أصل اللغة وضعاً ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن

الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ بالالباب يدركها من عنى بلغتهم ، وكانوا دائماً يكنون عن المعاني التى لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتي شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها الى غيرها من الالفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بانها استعيرت وقتا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وارادة مايلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخري بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب الشأو الواسع ، لان العرب اشتغلوا بالتجارات والاسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش ، وكانت ترد على حواسّهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان مايأخذون عن تلك الامم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت فى اللغة قبل الاسلام بزمن ليس بكثير ؛

وأعظم واسطة كانت لاشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتي يستعملها الجمهور الشعر العربي فان هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم

وكانت أسواقهم التي اليها يجتمعون لالقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى أول ذي القعدة الى عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيه الى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع الي عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر مايستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب واكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرىء القيس الذي كان أبوه ملكا فى نجد على بني أسد وشعراء الاوس والخزرج الذين كانو بالمدينة وطيئ وكلب المقيمين فى شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريبا لقلة الحاجة عندهم ولان معاشرتهم للامم الاخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال االلغة لايحتجون بمثل عدي بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لانه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق الى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق افادت اللغة العربية فائدة كبري وهي سعتها

وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر مااتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لان تقتبس من غيرها مايرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة الى اكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد ان تكون سهلة سلسة على الالسنة والاسماع وهذا مانحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الاسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون يتباهون ، في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم اذا هي رزقت شاعراً ينافح عنها في المجامع ربما أولمت الولائم فرحاً بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ماليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد ان يرى مثالاً واضحاً من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني فليطلع على مااختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ماجمعه أبو علي القالي في أماليه ، وماجمعه أبو العباس المبرد في كامله ، وماجمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فان مافي هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم الاأشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير

المحاضرة السادسة

الكتابة — العلوم — الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الافراد وانما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية، ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والانبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاث ليست بالشيء المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انها كانت لترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في افراد قليلين يسهل ان نعبر عن الامة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال (هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الانسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقي عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلاً او بعضاً وربما فاتهم الشيء منها اذا اشتبه عليهم الامر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه في بعض الاشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والاثبات

ولكون الشعر اكثر استعداداً لان يحفظ كان الباقي لنا منه اكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في المحافل والمجامع

جاء الاسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم الى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لان الانسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع . وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات الا ما كان منها مختصاً بما هم في حاجة اليه وكانت الحاجة في حواضر العرب اكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة اكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جمله الذى هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ، ثم اداة حربه وقلما يحتاج الى اكثر من ذلك

فاما حاجته الى المطر فقد كسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبىء عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الانذار بالجدب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تتخلف فيستدلون بالريح وباشكال السحب وبالانواء (١)

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة الى اثني

ومن استدلالهم بالرياح واشكال السحب ماروا صاحب الاغاني قال خرج اعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال الشيخ : اني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري : فقالت أراها كأنها ربوب معزى هزلي ثم قال لها بعد ساعة اني أجد ريح النسيم قد دنا

عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها فى الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والتى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية اشكالا اخرى وهى التى يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها الى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان او ثلاث وهذه هى المنازل — السرطان — البطين — النجم وهو الثريا — الدبران — الهقعة — الهنعة — الذراع — النثرة — الطرف — الجبهة — الخراتان — الصرفة — العواء — السماك — الغفر — الزبانى — الاكليل — القلب — الشولة — النعائم — البلدة — سعد الذابح — سعد بلع — سعد السعود — سعد الاخبية — فرغ الدلو المقدم — فرغ الدلو المؤخر — الحوت

وبعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يبتدىء القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة الاولى حتى اذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فاذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم انه لا يسمى نوءا الا اذا كان معه مطر فان لم يكن مطر فلا نوء واذا نسبوا المطر نسبوه الى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه الى الساقط . وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من من الحوادث الجوية . مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لانها تفتر عن البرد أو عن الحر فى الحالين . واذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا الى الافاضة فيه

فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعي واحذري ثم قال لها بعد ساعة اني لاجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعي واحذري ثم مكث ساعة وقال اني لأجد ريح النسيم فما ترين؟ قالت اراها كما قال الشاعر

دان مسفّ فويق الارض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله   ريط منشرة او ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته   والمستكن كمن يمشي بقرواح

قال انجي لا أبالك: فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم الى إبلهم كسبتهم بالتجارب قواعد ترجع الى ادواء الابل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك حظ وافر كما أنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الانساني ومعرفة امراض الانسان التي تنتابه فى الصحراء من أنواع الحمى التي لابد منها لمن يقيم حول مناقع الماء متعرضاً لبرد الليل وحرارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الاخرى

وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة ان قالت اني صناع اليد فانما تعني بذلك أنها تغزل

ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والاكسية والخيام الشعرية وكان النسج في حواضرهم واكثر مايكون في بلاد اليمن حتي قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الي ادوات القتال علمتهم صناعة الرماح وافادتهم التجارب معرفة الاشجار اللائق ان تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب اليها فيقال رماح خطية اما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والابلة وكانوا يسمون ناحية الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون الى حساب إبلهم ومايملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منتظماً بارقام وقواعد تعلم وانما كان حساباً ارقامه الايدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم علي صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكماً في الآثار والانسان كبني مدلج. وللعرب فى معرفة الاثر اعاجيب لا يكاد الانسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى مابقي منها بين اعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في اظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥

ولمهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليك مثالا من ذلك — في احدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ،وكانت ارض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالى وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه الى أن وصلوا الى اصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس اركان الحرب قائلين ان الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير ايضاً واتضح ان حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح ان باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ، ولما جيء بالسائسين امام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا انه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم في النوع الثاني مالا يقل عن الاول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا اقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً قائلا هذه الاقدام من هذه الاقدام ان كان النسب صحيحاً و ينفي هذا النسب ان لم يجد تشابهاً ولا يهمه ان كانا قد اتفقا في اللون او اختلفا فيه

والشريعة الاسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به و بعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الانساب اذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله ان العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من

الحوادث والاشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لاحد أمرين: أما الاول فهو شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه ينزع اليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب

الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الامور فهو يتخيل ان تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن الا نتيجة مساعدة مخصوصة من الاله القادر على كل شيء لانه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضا من خالق العالم الاكبر فان كان حيا فهو الوسيله وان كان ميتا قام قبره مقامه او جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ماشا كل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطى صاحبها في حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة او الضارة او لجماد نافع او ضار لأن القوة التي اعطيها و بها ضر ونفع اثر من آثار الخالق الاكبر وقد يصور ذلك الحيوان او يمثل ويجعل صورته او تمثاله مما يقرب من خالق القوي . ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر او فضة أو ذهب صنما ، و يسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعياً في الانسان ولذلك لم يخل منه

باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الانسان وتمثيل القوى المدبرة والاشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الانسان متدين بالطبع حتي انك لتراه اذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالا إلى عبادة اخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الانبياء يدعون الناس الى أفضل الطرق الموصلة الى ارضاء الله ورأسهم - بعد حادثة الطوفان - هو ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس الى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس و يدعي ابراهيم أبا الانبياء لانهم كانوا من ولده

وكانت النبوة في فرعين من ولده : الاول اسحاق ومنه كان جميع انبياء بني اسرائيل وأعظمهم وأبقاهم اثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الاول يسمى باليهودية نسبة الى يهوذا احد أسباط اسرائيل أو السبط الاكبر الذي منه كان جلة الملوك من اسرائيل ودين المسيح: هو النصرانية نسبة الى الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعي الناصرى

والفرع الثاني كان منه اسماعيل اخو اسحاق وهو داعية العرب الي دين ١
ابراهيم ثم كان منه محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة ابراهيم

كان الدينان المنسوبان الى الانبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فكانت اليهودية في بلاد اليمن واول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعاً لدعوة حبرين يقال انهما أتيا مع تبع الحميرى من يثرب وكانت

ايضاً بيثرب وما جاورها من ارض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في الشمال . وكانت النصرانية بنجران في شمالي صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين . الا ان المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لان روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والاغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدي ابن حاتم الطائي وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لان اليهودي يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

اما سائر العرب فكانت بعد اسمعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في اجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم او الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الاعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فاخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على

الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب تعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوي الأثر الصالح فيهم، أو تمثيل القوى التي يألفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا اليها —

ومما يؤكد ذلك ماقاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي فى وصف (ودّ) وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة: قال كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل — فهذا يشبه ان يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب —

وكان لهذيل صنم اسمه "سواع" في رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بني لحيان — وكان لمذحج وأهل جرش يغوث. واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن — واتخذت حمير نسر، وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضا بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضا؛

ويظهر ان هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لان نوحا كان ينهي قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)

ومن أوثانهم مناة، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الاوس والخزرج

ومنها اللات بالطائف ، وكانت صخرة مربعة فالظاهر انها لم تكن تمثالا وانما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى وكانت بوادٍ من نخلة الشامية عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الاصناف عند قريش وكانت سدنة العزي من بنى سليم

ومنها ذو الخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو الي المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكان على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد يميني أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الاحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وانما لتقربهم الى الله سبحانه كما قال فى الكتاب (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفي) وكانوا اذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون انه الله

٢ - وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح الى هذه الاوثان والاصنام التي يدعونها النصب والانصاب لانها نصبت للعبادة وقد استعمل الاعشي كلمة النصب مفرداً فقال فى كلمته التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافية والله ربك فاعبدا

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى اسرائيل ما

يشبه هذه الطرق

وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي: فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزوبرها ولا يشرب لبنها الاّ ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم

والسائبة التي ينذر الرجل أن يسيبها اذا برئ من مرضه أو ان اصاب أمراً يطلبه فاذا كان ذلك أساب جملا من أبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الاناث، منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد وصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره، ولم يجز وبره وخلي فى ابله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك ـ هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد وردذكر هذه القرابين الاربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

٤

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام: والزلم القِدْح الذي لا ريش عليه، والازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل ولا تفعل، وقد زلمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت

فاذا أراد رجل سفراً او نكاحاً أتى السادن فقال أخرج لي زلماً فيخرجه
وينظر اليه فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليه، وان خرج قدح
النهي قعد عما اراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابة فاذا اراد
الاستقسام أخرج احدهما ومعنى الاستقسام بها ان يطلب الانسان ما قسم له من
جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل ابراهيم وإسمعيل وبايديهما الازلام يستقسمان بها
٥ ومع ما كان للعرب من الاصنام والاوثان فانهم كانوا يعظمون الكعبة
ويجلونها فوق اجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون انها أثر ابيهم اسماعيل وكانوا
يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بامرها كأنهم
رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الاكبر وسدنته والقوام
بامره هم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي
أمراً من الامور الدينية بمكة

وقد كانت قريش ارادت أن تمتاز من سائر العرب بما يظهر فضلها
وشرفهم فقالوا نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة
وساكنوها فليس لاحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف
العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا اشيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم
ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل
ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون
ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ويرون لسائر العرب ان
يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن
الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم اياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا

معهم في ذلك وسموا انفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لا ينبغي للحمس ان يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا – ان استظلوا – الا فى بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لا ينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل الى الحرم اذا جاؤا حجاجاً، او عماراً ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً: وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك بطريق الاشارة فقال عن الاول (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وقال عن الثانى (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق)

﴿المحاضرة السابعة﴾

النسيىء — الموحدون من العرب — المولد النبوي — الحال قبل النبوة

كان تحريم الاشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيىء:

والنسيء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أي أخرت وأجلت ورجل ناسىء من قوم نسأة قال في لسان العرب: وذلك ان العرب كانوا اذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول انا الذي لا اعاب ولا أخاب ولا يرد لي قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً: أي اخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر واحل المحرم لانهم كانوا يكرهون ان يتوالى عليهم ثلاثة اشهر حرم

لا يغيرون فيها الا ان معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الانساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان

السنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه ابو علي القالي في اماليه فسمي الناسيء نعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارته فاذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً — وروى قول الشاعر

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام الى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته: والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من اشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تعالى (انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) ومعني ليواطئوا ليوافقوا وكان اول من نسأ الشهور على العرب — فأحلت منها ما احل وحرمت منها ماحرم — القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد الى ان كان آخرهم عوف ابو ثمامة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الاربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا اراد ان يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهمّ إني قد أحللت لهم احد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس ان لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما؟
ألسنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الاسلام الا أن بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفي سنة ٢٧٢ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فانهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال، ومعنى كونها شمسية انها بالكبس أو هذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربي الا فى فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر ، وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفي صدرهم محمد بن أحمد البيروني المتوفي سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودي الذي قال في مروج الذهب: وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما النسيء زيادة في الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب، ومنهم من اختار التفسير الثاني: وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود باشا الشهير بالفلكي في رسالة

له سماها نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام أبان فيها ان العرب قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها الا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم الا بالتفسير الاول وأظهر ان الخطأ في ذلك واقع فيه لاول مرة أبو معشر (١) وتبعه البيروني (٢) ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقي مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسره به

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله — والنسيء بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسي وتلاعب بما كانوا يسمونه دينا وشريعة فقد كانت أربعة الاشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب الى احلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالاشهر المعينة فهم يحلون أحد الاشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الاهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، اما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاما ثابتا انتهجوه في تقويمهم لبقاء الاشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاما والتحريم عاما لمواطأة عدة ماحرم الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالا لتلاعب النساة بدينهم

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخي توفي سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي المتوفي بعد سنة ٣٣٠

ومن الغريب ان المسعودي نفسه وهو الذى زعم ان العرب كانت تكبس قال في تفسير الربيعين: انما سميا بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون - كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لان الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية، فالحق ان النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للاهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب في جاهليتهم الا انه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم وان طرقهم التي هم عليها لا توصلهم الى الله ويقولون في أنفسهم ما معني التوصل الى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع ؟!!

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر- ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم: فالقرشيون ورقة بن نوفل الاسدي من أسد بن عبد العزى ابن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي من عدي بن كعب، وعثمان بن الحويرث الأسدي من أسد بن عبد العزى، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدي من أسد ابن خزيمة وأمه أميمة بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لاحد أصنامهم فقالوا: تعلمن والله ما قومكم على شيء!! لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم! ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ياقوم التمسوا الانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذى نفس زيد بيده ما اصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري ثم يقول اللهمّ لو أني أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم انه يبعث امة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده،

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته ام حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً

وكانت لاتزال كهان العرب وذوو الاسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد ان أخبارهم هذه انما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤوا من السجع الذي امتازوا به فى ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم

وغالبين علي امرهم اذا اشتبكوا في حرب وقد روي ذلك عن بعض الانصار

من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الاسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب، ولكنها لم تكن حركة منتجة لانها لم تؤد الى شيء ما من التغير في عبادة الاوثان، ولا الي شيء من اصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الانفس شيئا من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها، وله أولاد أشراف عظماء، منهم أبو طالب وعبد الله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبد المطلب ذو السن من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً الى الشام فلما وصل المدينة - وبها أخواله من بني النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلي الله عليه وسلم وانما كان بنو النجار أخواله لان منهم أم أبيه عبد المطلب

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل - ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان: ويوافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا - ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة، ولما ولدته أمه ارسلت الى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد: وهذا الاسم لم يكن معروفا عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه

من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم الا اسم واحد لاحد اشراف تميم وهو الاب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون ان اختيار هذه التسمية انما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور اذذاك على الالسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب .

وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب ان يلتمسوا المراضع لاولادهم في البادية لامرين (الاول) انهم يبتعدون في البوادي عن امراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الاطفال وهناك تقوى اجسامهم وتشتد اعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) انهم يتقنون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتاً وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبدالله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبي ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزي المكنى بأبي كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريبا من أربع سنوات ثم ردته إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفي زوجها عبدالله بالمدينة ان تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة اذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالابواء بين مكة والمدينة فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حبا جماً : قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له فكان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتي يجلس عليه فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب - اذا رأي ذلك منهم - دعوا ابنى هذا فوالله ان له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره مايراه يصنع ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصي به قبل وفاته الى أبي طالب عمه شقيق أبيه فان ابا طالب والزبير وعبد الله أولاد عبد المطلب كانت امهم جميعا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - اوثلاث عشرة - خرج ابو طالب الى الشام تاجراً واخرجه معه حتي وصلا بصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على مانتقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع ابي طالب حينما رأى معه ابن اخيه وأشار عليه ان يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصده وأخبره ان له شأنا فرجع به ابو طالب الى مكة وقد اطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر اساقفة الشام وبصري والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن امية لمكانته فيهم سنا وشرفاً وكان رئيس بنى عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله وكان ينبل على عمومته اي يجهز لهم

النبل للرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد ابن عبد العزي و بنو زهرة بن كلاب و بنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الاسدية من بنى أسد بن عبد العزي وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا في قومه بالامانة حتي كانوا يسمونه بالامين فعرضت عليه ان يسافر الى الشام بمالها وارسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتي أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا الى مكة ويروي ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهري ان هذه الرحلة التي ذهب فيها بتجارة خديجة انما كانت الى سوق حباشة باليمن لا الى الشام والرواية الاولي أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الامين ان يتزوجها فرضي وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة اقامت معه منها خمسا وعشرين وهي أم أولاده جميعاً ماعدا ابراهيم الذى ولدله بالمدينة فانه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من افضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً ولها في تاريخ الاسلام اجمل ذكر واصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فانها كانت رضيمة فوق القامة فارادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا انه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا الى اساس اسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذي تولى البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن اتمامها على قواعد اسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة اذرع وصعدوا بها في الجو حتي اذا وصلوا الي مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم احد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداء ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء ان يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم ان يرفعوه حتى اذا حاذى موضعه اخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجباً لرضاهم وابتعاد الشحناء من انفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الاسود والمقابل له ١٠،١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ١٠،٥٠ م من ارضية المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الارض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء اسفلها متوسط ارتفاعها ٠،٢٥ م ومتوسط عرضها ٠،٣٠ م وتسمى بالشاذروان وهي من اصل البيت ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد ايب بك

البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات ان هذا الاسم محدث أما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج ابن يوسف

وللكعبة اربعة أركان: الشمالى واسمه الركن العراقي والغربي واسمه الشامي والجنوبي واسمه اليماني والشرقي واسمه ركن الحجر لان الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠،٣٠ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت ويبعدان عنها ٢،٣٥ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١،٥٠ م ومسافته ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ١،٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر اسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء ابراهيم ويقال ان اسماعيل وهاجر امه مدفونان فى الحجر

السيرة الادبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين ان سيدنا محمد بن عبد الله كان في قومه ممتازاً
(١) بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والامانة حتي سموه الامين وكانوا يودعون
(٢) عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب
ولا يحضر للاوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من
هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لان اباه لم يترك له من
الثروة الا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب التجارة ولما تزوج خديجة

كان يعمل بمالها ويشركها في الذبح وكان يشارك غيرها أحيانا ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا هنا من ذكر مسئلة وضعها الاصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الائمة منهم ان هذه مسأله من اختصاص التاريخ لا من اختصاص اصول الفقه

فقال جمهورهم انه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بانه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها و وجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لانه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الائمة كالغزالي وشيخه امام الحرمين والآمدي لانهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة ؟؟

وقال بعضهم انه كان متعداً بشريعة ولكن ماهي تلك الشريعة

اختلفوا في تعيينها فمن قائل انها شريعة آدم أو نوح أو ابراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على ان أصحاب هذا الرأي ليسوا امرتكزين على دليل قوي يعضدهم وانما هي مجرد أفكار

واختار الكمال ابن الهمام من الاصوليين مذهباً مبهماً وهو انه متعبد بما ثبت انه شرع اذ ذاك الا ان تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالاخير فان لم يعلم الاخير فهو متبعد بما يركن اليه منهما واستدل على ذلك بان التكايف لم ينقطع من بعثة آدم عموماً وخصوصاً ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد و بلغه ذلك المتعبد به وقال ان هذا الدليل يوجب التعبد في غيره

وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقي والذى نراه ان الفيصل فى مثل هذه المسئلة انما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لان مثل هذا الرأي يلزمه ان الانسان مطلوب منه ان يتطلب جميع الشرائع الماضية التى سبقت ويعبد الله بما يثبت انه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع انه عليه السلام فعله حتى كنا نقول انه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت انه قبل نبوته رفض الاوثان وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الاخلاق التي في مقدمتها الصدق والامانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك الى عرفه وعبادته فيه لم تكن الا فكراً في خالق الكون الاعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون انه أول من تعبد فيه

ولم يعلم عنه انه كان يراعي الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل الى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره والى ذلك الاشارة في الكتاب (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه (ووجدك ضالاً فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة

المحاضرة الثامنة

البعثة – الوحي – الدعوة السرية – الجهر بالدعوة
ما كان من قريش — هجرة الحبشة

البعثة

الذين يختارهم الله لاصلاح الامم يلقي اليهم ما يريد ان يبلغوه عنه بالوحي. والوحي – في لغة العرب – اعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة ان هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبني عليها تلك النتيجة بل هي اشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال. وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن، وفي لسان العرب لغير اعلام الله لانبيائه فقال تعالى (واوحي ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) وقال (واوحينا الى ام موسي ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف في صغره (واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الالهام الذي ربما شعر به كثير من الناس.

اما اعلام الله انبياءه المختارين فان العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الانسان هو ان يحوم حوله مستعيناً بما قاله الانبياء انفسهم فيما نزل على السنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك الى العقل الانساني. هذا الاعلام له مراتب

الاولى ان يخاطب في النوم وتلك هى الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقران وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب الى ابرام فى الرؤيا قائلاً الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان ابراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابني اني ارى في المنام اني أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانية ان يلقي مايراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمي بالالهام والالقاء في الروع ويسمي بعض فلاسفة المسلمين القوة التى تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكاً على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فانه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين. وقد يتروحون بقوله تعالي في الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة ان يرسل الله اليه رسولاً يخبره بما يريد اعلامه اياه وهو المسمي بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للانبياء فى التوراة كثيراً

المرتبة الرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسي عليه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسي اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما

اتاها نودي ياموسى اني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي)

هذه هي المراتب التي عرف ان الوحي يبلغ قلوب الانبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علماً ضرورياً أن ذلك من الله ، وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيء من جنسها لمن فني فكرهم في أمر أو حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقاً ، ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وانما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب الى الانفس مالا يحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقته : اذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الاله ؟ انا لا استغرب ما قرأته في بعض الكتب ان صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأني اعلم ان الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضي لشأنه حتى اذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه الى أمر جسمها احست بالالم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الانبياء عند الوحي من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال احياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، واحياناً يتمثل لي رجلا فأعي ما يقول

ومما روي انه كان يكابد من التنزيل شدة حتى انه كان يوحى اليه

في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً تكلم فيه على الوحي والرؤى ولكن قلما يظفر الانسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول مابدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا الاجاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخاري من حديث عائشة

و بينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذجاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده فيكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و ٨ ايام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ : ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد أن أشار اليه الكتاب اشارة ظاهرة لاتخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله (١) علماً لاول يوم نزل

---

(١) جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم الذي عدده محلاً لكثير من الوقائع مع انه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان اول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وانما هو واحد بكونه ١٧ رمضان . وتدبر الآية يبين انه لا يصح ان يراد منها غير هذا . لان الذى فرق الله به بين الحق والباطل انما هو اختيار الله محمداً لان يبلغ عنه الى الناس رسالته و ليس ظفر المسلمين في موقعة

فيه القرآن . وليلة نزول القرآن هي التى قال فيها الكتاب (انا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لانه هو الشهر الذى كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء و نزل عليه القرآن فيه لاول مرة (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الأمر العظيم و وجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك اذا تنبه اليه الانسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقى الى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما اخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ! ثم أرسلني فقال اقرأ قال قلت ماذا اقرأ ؟ قال فغتني به حتي ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما أقول ذلك الاَّ افتداء منه أن يعود لي بمثل ماصنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق : خلق الانسان من علق : اقرأ و ربك الاكرم : الذي علم بالقلم : علم الانسان مالم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكانما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى اذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول

مما يرتقى الي تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكي من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الاول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذي اوقعه في الخطأ مافى بعض الروايات من انه عليه السلام بعث على رأس الاربعين

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى فخذها مصغياً اليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو ان تكون نبي هذه الامة، ثم قامت فجمعت (١) عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل فاخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقه قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسي وانه لنبي هذه الامة فقولي له فليثبت ، فرجعت خديجة الى رسول الله صلي الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما قضي عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذى نفسي بيده إنك لنبي هذه الامة ، ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسي ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدني رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله

١) هذه رواية ابن هشام

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كاف به الا ان يحمل أعباءه التي لا يحتملها الا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب ، وبها سدانة الكعبة والقوام على الأوثان والاصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها ازداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج الي عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة — الى هذا الدين — في بدء أمرها — سرية لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم — ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد — فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحري الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الاسلامي بالسابقين الاولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه ، وزيد ابن حارثة بن شرحبيل الكلبي ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلى بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ، وكان أبو بكر محبوبا في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد ايمانه نفراً ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الاسدى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي ، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث ابن فهر ، وأبو سلمه عبد الله بن عبد الاسد ، والارقم بن أبي الأرقم المخزوميان

وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الاولون وهم من جميع بطون قريش، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم الي الدين مستخفياً في دار الارقم بن أبي الارقم المخزومي بمكة - لان الدعوة كانت لاتزال فردية، وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتني بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي !!!

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر ان يجهر بالدعوة الى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة الى الله وتوحيده، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها اوجعلها بينه وبين الله الى الضلال وجر ذلك الى تضليل آبائهم ، فانهم كانوا يحتجون عليه دائما بانهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية الى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من ان تكون له حماية تمنع عنه ما عسي ان يهم به اعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم ، وكان عمه ابو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب الاصول العربية - ان يجير ! فان فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كأنه اعتدي على البيت بأسره: وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الاطلاق : فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضي الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليه

من الوحي

لما رأت قريش انه صار في منعة بجوار أبي طالب مشي رجال من أشراف قريش اليه يطلبون منه ان يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم او يخلى بينهم وبينه فردهم أبوطالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما رأوا ان هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلي أبى طالب مرة ثانية قائلين إنهم لايصبرون على هذه الحال !! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له ياابن أخي ان قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يساري على أن أترك هذا الامر — حتي يظهره الله أو أهلك دونه — ماتركته ثم استعبر وبكي ، فلما ولي ناداه أبوطالب فقال أقبل ياابن أخي فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما احببت فوالله لاأسلمك لشيء أبداً

فلما رأت قريش ان اباطالب قدابي خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة ابن الوليد، وقالوا اله ان هذا الفتى انهد فتي في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك واسلم الينا ابن اخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل: فقال لهم ابوطالب لبئس ماتسومونني اتعطوني ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابنى

تقتلونه ؟! ولما رأى ابو طالب تألب قريش عليه قام في اهل بيته بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من ام واحدة ، دون اخويهما عبد شمس ونوفل - ودعاهم الى ماهو عليه من منع ابن اخيه والقيام دونه ، فأجابوه الى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي الا ما كان من اخيه ابي لهب فانه فارقهم وكان مع قريش ، ولا ادري افضل حميته على لدينه على حميته لشرف اخيه ام كانت هناك اسباب أخرى أدت الى هذا الانفصال ؟ ولا اظن ان كونه من ام اخرى غير ام ابي طالب يدعوه الى مثل ذلك لان هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الاخوة لان العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ، ولا يبعد عندي ان زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه الى مثل هذا ، لان ام جميل كانت من ألد اعداء رسول الله حتى انها كانت تذيع عنه الاكاذيب في مجامع النساء فتشعل بتلك الاكاذيب نار العداوة في قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لانه هو الذي يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش انه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوته اثر في انفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لانهم اذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فان ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب : فقال واحد منهم نقول كاهن ! فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو

ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان ! وماهو بزمزمة الكاهن ولا سجعه : فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ما هو بمجنون ! لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر ! لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ! فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر ! لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم : قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وان فرعه لجناة (١) ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عرف أنه باطل وإن اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابيه و بين المرء واخيه و بين المرء وزوجه و بين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احد الا حذروه اياه وذكروا له امره وصدرت العرب من ذلك الموسم بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها

ولما خشي ابو طالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة و بمكانه منها وتودد فيها اشراف اهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم انه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء ابداً وفيها يقول

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ونظعن الا امركم في بلابل

كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتي نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وفيها يقول

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا الى الفتنة(١). فمن جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحاً فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفي منه مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم لا يبالى بما يصنع سفهاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فان كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالاسلام أنواعاً من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه ـ وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب ـ قال لهم لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة في الاسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج

(١) يقال فتنت الفضة والذهب اذا اذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد واستعملت فى الابتلاء والامتحان والاختبار ـ والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

معهم من اولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا الى الحبشة اكرم النجاشي مثواهم واعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد!! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا الي النجاشي ويطلبا منه ردهم الي بلادهم وارسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا الي بلاد الحبشة واتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قالا له ايها الملك قد ضوى الي بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم اعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر ان هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فان السيدة ام سلمة احدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء ابغض الى عبد الله بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهما النجاشى ؛ فلما اديا الرسالة قال النجاشي لاها اذاً لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سواى — حتى ادعوهم فاسألهم عما يقول هذان في امرهم ؟ فان كان كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهم واحسنت جوارهم ما جاوروني ، ثم ارسل الى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا في دين احد من هذه الملل فكلمه جعفر بن ابى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة

الاسلامية وما امر به الرسول من ترك عبادة الاوثان والرجوع الى الله وما وصاهم به من مكارم الاخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا : فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون : : فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم ! فقال له عبدالله لا تفعل ! فان لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه انهم يزعمون أن عيسي بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك انهم يقولون في عيسي بن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ؟ فقال جعفر نقول فيه الذى جاءنا به نبينا هو عبد الله و رسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي بيده إلى الارض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسي بن مريم مما قلت هذا العود، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم — ومعني هذه الكلمة بالحبشية آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة— قبل الهجرة إلي المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران

بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للاسلام والمنتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ماروته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت : والله انا لنترحل الى أرض الحبشة اذ أقبل عمر بن الخطاب حتي وقف عليّ وهو على شركه قالت وكنا نلقي منه البلاء أذي لنا وشدة علينا قالت فقال انه الانطلاق يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجنّ فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد احزنه — فيما أرى — خروجنا قالت فجاء عامر (تعني زوجها) فقلت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى اسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذي رأيت حتي يسلم حمار الخطاب ، قالت يأسا منه لما كان يري من غلظته وقسوته على الاسلام ،

المحاضرة التاسعة

فى مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب — هجرة الطائف — العرض على قبائل العرب واجابة الأنصار — البيعة — الهجرة

رأت قريش ان حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة اخري وهي مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على انفسهم

بذلك ، فانحازت بنوا هاشم والمطلب الى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

أقام أبو طالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون اشد الجهد من مقاطعه قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً واعلاناً مناديا بأمر الله لايتقى فيه أحداً من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبنى المطلب وأعظمهم فى ذلك أثرا كان هشام بن عمرو ، من بنى عامر بن لؤي وكان ابن أخى نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمشي الي زهير بن أبي أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم! أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه منهم ماأجابك اليه أبداً !! قال ويحك ياهشام انما انا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمت في نقض الصحيفة حتي انقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال اناقال زهير ابغنا رجلاً ثالثاً فذهب الى مطعم بن عدي وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت ان يهلك بطنان من عبدمناف وأنت شاهدعلى ذلك موافق لقريش فيه اما والله لئن امكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فانما انا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانياً قال من هو ، قال انا قال ابغنا ثالثاًقال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى امية قال ابغنارابعاًفذهب

الي ابى البختري بن هشام فقال له نحواً مما قال لمطعم واعلمه بما اتفقوا عليه : فقال ابغنا خامساً فذهب الى زمعة بن الاسود من بنى اسد ابن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد ! قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا أبدؤكم : فلما أصبحوا اغدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب و بنو هاشم والمطلب هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم؟!! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق ، فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام ابن عمرو نحواً من ذلك : فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشورفيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجدالارضة قد أكلتها الا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين فى شهر شوال ،

وكانت خديجة له وزير صدق على الاسلام يشكو اليها وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول مالم تكن تطمع فيه في حياة ابى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يوازره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدى رسالة ربه فذهب الى الطائف ـ وبها بطون ثقيف ـ وعمد الى أشرافهم وذوى الرئاسة منهم وهم اخوة ثلاثة عنديا ليل ومسعود وحبيب ابناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم رداً قبيحاً ، فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه الى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل الى المطعم بن عدى يخبره انه يدخل مكة في جواره فأجابه الى ذلك ثم تسلح المطعم واهل بيته حتى اتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله ان ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفى

اجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالبي مهل واحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعياً من اقبل الى مكة من سائر العرب ويقرا عليه القرآن ويطلب منهم ان يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لايجيبونه الى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً :

عرض ذلك على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الامر من بعدك قال الامر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الامر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ! وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن احد اقبح رداً منهم

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين الاوس والخزرج ، وكانت الخزرج اكثر عدداً ففكر الأوس انهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم ابو الحيسر أنس بن رافع واياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا وماذاك ، قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ادعوهم الى ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل علىّ الكتاب ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ — وكان غلاما حدثاً اي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ ابو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه اياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا الي المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل فى يثرب حرب شديدة بين الاوس والخزرج ، ويسمي يومها فى التاريخ يوم بعاث : و وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الاوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة

فى الموسم الذى كان بعد هذه الحرب أقبل الى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الاسلام كما كانت عادته وكان فى أنفسهم

شيء مما كانوا يسمعونه ، وهم فى المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرضه عليهم من الاسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم وعسي ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لامرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتي فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر — وافى الموسم من أهل المدينة اثناعشر رجلا ، فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى فى التاريخ ببيعة النساء ، وانما سميت بذلك لانها كانت (١)
على الامور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (ياأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد ان تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار بن قصي وامره ان يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ،

فكان يسمي المقريء وكان يؤمهم فى المدينة لان الاوس والخزرج كره بعضهم ان يؤمه بعض وكان اسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب فى الاسلام فأسلم أسيد ابن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الاشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يا بني الاشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال فان كلام نسائكم ورجالكم عليّ حرام حتي تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ما أمسي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة الا مسلماً أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الاسلام حتي لم تبق فيها دار الا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس اخرها عن الاسلام صيفي بن الاسلت المكني بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتي اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بنى مازن بن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمر وإحدى نساء بنى سلمة من الخزرج ، واستمروا

منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه الا أنه احب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال: يامعشر الخزرج ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبي الاّ الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه ـ بعد الخروج به اليكم ـ فمن الآن فدعوه فانه في عزّ ومنعة من قومه و بلده ، فقال المتكلم من الخزرج قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله و رغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله فانا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال ابو الهيثم بن التيهان يارسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالاً وانا قاطعوها (يعني يهود المدينة) فهل عسيت : ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ـ ان ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم الرسول ثم قال : الدّم الدم والهدم الهدم : يعنى انا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسي ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرىء القيس من الخزرج

(٣) عبد الله بن رواحة « عمرو بن امرىء القيس

(٤) رافع بن مالك « زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور « سلمة بن سعد

(٦) عبد الله بن عمرو من بنى سلمة بن سعد من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « غنم بن سالم «

(٨) سعد بن عبادة « ساعدة «

(٩) المنذر بن عمرو « «

(١٠) أسعد بن حضير « عبد الاشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة « كعب بن حارثة «

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان « عبد الاشهل «

وكان اول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون ان أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الاشهل يقولون إنه أبو الهيثم بن التيهان: والقول الاول أثبت لان البراء بن معرور كان كبير القوم: بعد أن انتهت المبايعة امرهم رسول الله أن يعودوا الى رحالهم فذهبوا الى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء رأساؤهم الى منازل الانصار، وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله مامن حي من العرب أبغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث

من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لانهم لم يعلموه وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول — وهو سيد من سادتهم لم يسلم فقال لهم ان هذا الامر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه

نفر الناس من منى ، وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد ان فاتهم الانصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق بأخوانهم من الانصار ، وقال لهم ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا وداراً تأمنون بها فخرجوا ارسالا رجالا ونساء الا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وعرفوا انه قد اجمع لحربهم فلم يبق الا أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في امره وكان بها اشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نحبسه في الحديد ونغلق عليه باباً ثم نتربص به ما اصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما اصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأى لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى اصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبونكم على أمركم : فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب ولا حيث

وقع اذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ماهذا لكم برأى!! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به لو فعلتم ذلك ماأمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتي يتابعوه عليه ثم يسير بهم اليكم حتي يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ماأراد : فقال أبو جهل بن هشام إن لى لرأياً فيه ماأراكم وقعتم عليه ، هو أن نختار من كل قبيلة شاباً فتى جلداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم ، فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، و بما أجمع عليه أعداؤه فتوجه الى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه اليها ثم هيأ مايلزم لهذا السفر راحلتين ودليلاً خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التى اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبى طالب أن ينام مكانه و يتسجي ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج الى بيت أبى بكر ، وخرجا معاً من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ثم عمدا الى غار بجبل ثور

وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبدالله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعي غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما اذا أمسى في الغار ليعفى أثر عبدالله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبى طالب لا محمد بن عبدالله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أو ميتا مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يميناً وشمالاً ولكنها عادت بالخيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتي علما ان قد سكن الطلب فجاءهم الدليل — حسبما اتفقا معه — بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبدالله بن اريقط فسلك بهما الى الساحل حتي عارض الطريق اسفل من عسفان ثم سلك بهما على اسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد ان اجاز قديداً ثم اجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذي كشد ثم اخذ بهما علي الجداجد ثم على الاجرد ثم ذا سلم من بطن اعداء مدلجة تعهن ثم علي العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية العائر عن يمين ركوبة حتي هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء علي بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الاول لثلاث

وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

والى هنا انتهى القسم الاول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين: أولهما في التشريعات المكية والثاني في آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكي —

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و ٢١ يوماً اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي — وهو اثنتان وعشرون سورة — نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الانفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١١٠) النصر وماعدا ذلك فهو مكي

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ماجاء الرسول صلى الله عليه وسلم لاجله و بين روحه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم ، أللّهر بنا

وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو اسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلي ، وإنما سماه كذلك لانه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله — من الشرائع الابدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع — فيما مضى وفيما هو آت — ان يكون متبعا لها منقادا لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج ﴿ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الانبياء وقال له الله عنهم — في سورة الانعام — بعد أن قص عليه اسماءهم — أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ إلى غير ذلك

وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو

(١) التوحيد ورفض الاوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة

معلوم ان العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية الا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للاوثان والاصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ، ولذلك راينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه الادلة وتناقش المعارضين وتذم الشرك والاوثان والاصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحا وتلميحا : ضربت الامثال بالامم السابقة وما اصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للانبياء والرسل ، وكررت ذلك تكرارا مؤثرا بأساليب مختلفة : لان اشد ما يفعل في النفوس لاثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الاساليب . واكثر الانبياء ذكرا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من

سؤال وجواب لاثبات الوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلي الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره اياهم عن الوقوع في هذا الشرك ، وايعادهم بالشر اذ هم عادوا اليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبري خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم ابراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأي كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لاأحب الآفلين فلما رأي القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون إنى وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) : ضرب لهم الأمثال بالامم الخالية من عرب وغيرهم ، كل ذلك للتأثير في هذه الانفس التى أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك -بالضرورة- الى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها ، وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الانسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون ، فانهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن

جميع الافعال التي يشرع فيها الانسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لان الامر كما علمتم — يحتاج الى مقاومة شديدة فان النفس المتشبعة بالشيء الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود اليه متى ظهر أمامها فأنها اذ ذاك تحن اليه : وللحركة النفسية مداخل غريبة ، ولذلك قال علماء الاخلاق اذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخذه عنها فان رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الاوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الاوامر : : مثلوا أمام نظاركم حالة شارب الدخان اذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سجارة بيد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الالف القديم فيحتاج عند ذلك الي عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين، ولا ينسى الأمر بتاتاً الا بعد مرور زمن طويل والامثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الانسانى كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع : ولذلك لما رأي عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلي الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها واعفاء أثرها

(٢) اثبات يوم آخر يجازى فيه كل امريء بعمله ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً، وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان في أمر التوحيد والاوثان ونصت على أن العدل سيجرى مجراه بعد أن توزن أعمال

الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب اذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الانساني من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها في الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب الى النفس الانسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه مهما دق (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح امامهم باب الرجوع الى فعل الخير واخبرهم أن الحسنة اذا تلت السيئة محتها : والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة في محو السيئات انما هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب الى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع الى الاخلاق والملكات في معامله الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور)

و يقول في سورة الاعراف (خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) و يقول فى الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) و يقول فيها (قل

لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور (وقال في سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم) جمع لهم فى سورة الاسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلي كل وصية بفائدتها إقرؤا — إن شئتم — من قول الكتاب وقضي ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، الى قوله ذلك مما أوحي اليك ربك من الحكمة : وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، الى آخر السورة ، واستقصاء ذلك يستدعي وقتاً طويلا وإنما نحن نشير الى ذلك و نطلب منكم مراجعته ، ولا تجعلوا بينكم و بينه سداً من الاوهام حتي تعلموا بم كان يوصيهم و كيف كانوا يجيبونه ؟؟ فانه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزله الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير : والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الامر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحي كيف يؤديها — كما ورد في الأخبار الصحيحة — والصلاة وحدها هي التى فصلت تمام التفصيل بمكة ، وتفصيلها إنما كان عملياً لان آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وانما أخذ منها بطريق الاشارة وقد نقلت نقلا عملياً ، وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون ممن يستحقون الويل

(الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذى فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله الي الملأ الاعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الاسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا

الاسراء مصدر أسري يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به — في لسان المحدثين — تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى ليريه الله من آياته والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعني السلم المعدله ويراد به صعود رسول الله الى الملا الاعلى

الاسراء ورد ذكره فى الكتاب فى أول سورة سميت باسمه قال تعالي (سبحان الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصي الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لان السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وان رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المومنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذي سمي فى ذلك اليوم بالصديق ـ وكذب بها المشركون و بعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتي أن بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الاسراء : فروي عن معاوية بن أبي سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : و روى عن عائشة أن الاسراء إنما كان بروحه لان جسمه لم يزل من مكانه

ونري أن نتيجة القولين واحدة — لان الاسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات اذ لم يقل بهذا القول احد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم علي شيء من الآيات التى هي في جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحي للانبياء ويستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى في السورة نفسها (وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصري راوى حديث الاسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى وماجعلنا الرؤيا الخ

ويقول وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمه و يستدلون على رأيهم بأن الاسراء لو كان رؤيا ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لانه ما الذى يستبعد من اطلاع إنسان على اقصي مافي الارض في رؤيا يراها

بعض المورخين يميلون الى رأى عائشة ومعاوية ، لا لانهم يحيلون أن يقع للانبياء أمر خارق للعادة ، بل لانهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عياناً وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل اليهم من طرق مأمونة الخطأ أوصرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الاسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لانه لم ينقل الينا التاريخ أن أحداً قام في وجههما رادا عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن اسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن أن نزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا الخ . وعائشة زوج الرسول (وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة) وادرى الناس بما كان من حوداثه التى أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها

أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأي يتفق على خلافة جمهور أمته خصوصاً في مثل هذه الحادثة الكبري ثم لا يقوم في وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً في ايسر الأمور فكيف بهذا الامر الجلل لمارجع هؤلاء المؤرخون الى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم واطلاع الله نبيه في نومه على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن اطلاعه إياه في يقظته لان رؤيا الانبياء حق — تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الأسراء الى عبده، والروح اذا جلى لها المسجد الاقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون ظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي — لأن يجدوا فرصة لذلك — أن يسمعوا منه عليه السلام أسري بي الليلة الى بيت المقدس، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله، وقد كان يقول بعضهم لبعض — كما جاء في الكتاب — (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن اسحاق بعد أن ذكر القولين والله اعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين — من أمر الله على أي حاليه — نائماً او يقظان — كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الاخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى

شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين انه حصل جملة مرات منها المرة التي كانت ليلة الاسراء وأصحاب الاسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الاسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمي بالمواهب اللدينة فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي من يقول بالاسراء الجسمي

لما كان كثير من المحدثين يرون ان الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد اغرب بعض الرواة فجعله قبل ان يوحى اليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحاق بعد فشو الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبى طالب . ويلزم من ذلك ان الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الامر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول ان الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فانا قلما نجد من الاوامر المكية ذكر الصلاة الا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الارض في سورة الانعام (وآتوا حقه يوم حصاده) الا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس.

مما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمر

مدهش ذلك أن الرسول صلي عليه الله وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه اذى اعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل امامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات (١) ولتعلمن نبأه بعد حين (٢) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد (٣) سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق (٤) أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ؟! أم يقولون نحن جميع منتصر ؟! سيهزم الجمع ويولون الدبر (٥) ولو ترى إذ فزعوا فلافوت وأخذوا من مكان قريب (٦) قل ربِّ إما تريني ما يوعدون ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين (٧) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن (٨) قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها (٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (١٠) ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون (١١) فأعرض عنهم وانتظر إنا منتظرون (١٢) فارتقب إنهم مرتقبون الى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع وظهر نبؤها بعد حين

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

كان يفعل الامر يرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وارادة الخير لهم و يكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتداً ومنبهاً كما حصل في حادثة عبدالله بن أم مكتوم الاعمى فقد حدث أن الرسول قابل جمعاً من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم اليه، فجاءه ابن أم مكتوم وقال يارسول الله علمني مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعاً في أولئك العظماء، فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الاعمي وما يدريك لعله يزكي أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك أن لا يزكي ؟ وأما من جاءك يسعي وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال: أدبني ربى فأحسن تأديبى

(٥) مما شرع فى آخر أيامه بمكة الاذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبري في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة: و بحثنا قاصر على الجهة التاريخية، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لان ذلك ليس من عملنا

المحاضرة الحادية عشرة

أسباب شرعية القتال — المواثيق والعهود — أسرى الحرب — الاسترقاق

لم شرع القتال ـ ؟

بين الكتاب فى مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الاول) الدفاع عن النفس عند التعدى ، الثانى : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتي يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصد من أراد الدخول فى الاسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الاول — جاء فى سورة الحج ، وهو أول ما أنزل فى أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق — الا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة الا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير

لآية الشوري ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل إنما السبيل
على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق — ثم بينت أنه لولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف اشكالها
ونسبها فلا يكون لله فى الارض ذكر : ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم
بالقتال بأوصاف هى في الحقيقة تنبيه لهم إلى مايجب أن يفعلوه إذاهم انتصروا
على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر

الموضع الثانى — قوله فى سورة البقرة المدنية (وقاتلوا فى سبيل الله
الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث
ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم — والفتنة أشد من القتل
— ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم
كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتي
لاتكون فتنة ويكون الدين لله — فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ـ
الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل مااعتدي عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم
بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا
من الاذي والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لاتكون فتنة ويكون
الدين لله بأن يكون الانسان حراً فى دينه لايدين به إلا لله لاخوفاً ولا
طمعا وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لانها اعتداء على العقيدة

والوجدان وذلك شر ما يكون من بني الانسان : نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء ـ لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادىء بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث ـ قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرا » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما « أولاً » سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعي اليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانبا (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

بينت هذه الآيات ان لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة

وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس ـ قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة

الموضع السادس ـ قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله إنه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لان الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع ـ قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية سببا لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود الى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال اول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد ابيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قد مالئوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الاحزاب حتي زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم و بين النبي صلي الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقتضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما

جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان امر القتال اولا قاصراً على قريش ومن عالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الامر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع الا دفاعاً عن انفسهم ، وتأميناً للدعوة من ان تقف الفتنة في طريقها واعلن أنه لم يجيء معتديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح الى سلم من سالمه

ومما يويد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء في سورة الممتحنة (لا ينها كم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينها كم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الاخلال بها ، وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب في أول سورة المائدة « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود » وقوله في سورة الاسراء ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وقوله في سورة النحل ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله

عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾

وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لان أول السورة ﴿براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ ثم استثني منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد فى سورة الانفال ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواءٍ إن الله لا يحب الخائنين﴾ والخوف انما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لان من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال (إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل اليها

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وإن كان — المقتول خطأ — من

قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو الذى أوجبه في قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله فى سورة القتال (حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) فجعل ماخير فيه أولياء الامور المن وهو العفو والارسال من غير شيء الفداء وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدى العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال في سورة المؤمنين المكية (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) وقال مثل ذلك

في سورة المعارج المكية أيضاً أي قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أوما ملكت أيمانكم) ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الاولى — أنه جعله في سورة البلد المكية من أول الواجبات على الانسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الانسان (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أومسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة) فجعل فك الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية — أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعني أن الامام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب

الثالثة — أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة عن جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) الآية وقال فى كفارة الظهار (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) وقال فى كفارة اليمين (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها

هذا ماأحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذى امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لان لذلك علماءهم أدري به منا ولو مركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الاول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الانصار وصلى الجمعة بمسجد فى بطن وادى رانوناء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مرّ على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة (لناقته) حتي اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها الاول فبركت فيه و وضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه (١) فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى

---

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابني النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله . و يروى أنه أبى الا بالثمن والذي اخترناه هو رواية ابن اسحاق وهى توافق رواية مسلم و بعض روايات صحيح البخارى

مسجداً ونزل على أبي أيوب حتي بنى مسجده ومساكنه ، فانتقل من بيت أبي أيوب اليها

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد الاّ مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الاسلام الاّ قليلاً منهم

ومن أول الاعمال التي عملها عليه السلام أن كتب كتاباً بين المهاجرين والانصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وإن من تبعنا من يهود فان له النصر والاُسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» وفيه وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين - وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بنى عوف وفيه وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخي بين المهاجرين والانصار فكان يأخذ بيدى المهاجرى والانصارى

ويقول تآخوا في الله أخوين

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة والتي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة — الاعمال الحربية — التشريع — الاخلاق التي ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشرة

ودان — بواط — العشيرة — بدر الكبري — بنى قينقاع

الاعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهراً خرج فى صفر من السنة الثانية إلي ودان(١)

وكان يريد قريشاً و بني ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة، ثم رجع ولم يلق كيداً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الاول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث، في ستين راكباً من المهاجرين حتي وصل

---

(١) سمى المؤرخون ماخرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية و ودان من ناحية الفرع بينها و بين الابواء ثمانية اميال قرية من الجحفة التي هى على أربع مراحل من مكة وست من المدينة

ماء بالحجاز بأسفل ثنية (١) المسرة فلقي بها جمعاً من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث فى هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص (٢) في ثلاثين راكباً فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل فى ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط (٣)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الاول يريد قريشاً حتي بلغ بواط من ناحية رضوي ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الاولي،

العشيرة (٤)

في جمادي الاولي خرج حتي نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادي الأولى وليالي من جمادي الثانية و وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من

---

(١) ثنية فى شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها الي الشام (٣) موضع قرب جبل رضوي : ورضوي على مسيرة يوم من ينبع . ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق تختصره العرب الى الشام (٤) وادقريب من ينبع

بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (١) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينه قليلاً بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز ابن جابر الفهري أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان (٢) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش ـ ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ـ بامر غير مفتوح ـ وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأتمر بها عبد الله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والاسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم! وقال ما أمرتكم بقتال فى الاشهر الحرم ووقف العير والاسيرين فقط في أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا ! وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال

(١) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٢) واد من ناحية بدر

ولما كثر الكلام فى ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال !؟ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعنى لئن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ! ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والاسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت إلي الشام و باعت و ابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول، فندب إليها أصحابه ، وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلاً ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فاخبر -وهو يسير- أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً

يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير فى أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي — يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة ، يامعشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لاأرى أن تدركوها الغوث الغوث — فتجهز الناس سراعاً وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والالف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوي من وادى بدر

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى اذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون الي بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدراً جاءته الاخبار عن قريش بانهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتي تبلغه ، فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علىّ أيها الناس وانما كان يريد الانصار ، لان العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته الا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج

(١) موضع أقصى أراضي هجر

ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله، قال أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك مناما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وأن قريشاً وراء وادى بدر — وكان أبو سفيان قد ساحل بالعيرفنجا ، وأرسل الى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبو جهل وقال والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً فى صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بنى عدي أحد : مضت قريش حتي نزلت بعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون علي أول ماء من بدر فجاء

الحباب بن المنذر إلى رسول الله وقال له يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة: قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدني ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأي وفعل كما قال

ثم إن سعداً قال للرسول يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك؟ ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبني له

تراءي الجيشان: فلم يكن بد من الحرب في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب القواعد العربية. فخرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الانصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبى طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبة وعلي بازاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما ـ وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما

أثبت من صاحبه فحمل علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار ، فان الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون: ولما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته في حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما ـ وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية والآخر ـ زيد بن حارثة ـ إلى أهل السافلة

ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفي عودته قتل رجلين من الاسرى أحدهما النضر بن الحارث لانه كان غالياً في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم و يعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز بن عمير: كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقر رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه علي قبول الفداء من قريش فى الاسرى ، وكان بعض الصحابة ـ ومنهم عمر وسعد بن معاذ ـ يريدون قتلهم ، وكان رأي أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون

ذلك، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضي عليه السلام رأي أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم، فان موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأي سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الاسرى فقال له (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الاسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من منّ عليه بغير فداء ومنهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدئت بأمر الانفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضي فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي وهو أربعة أخماسها للغانمين: وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب إبني عبد مناف ولم يعط منه بني نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين الى هذه الحرب وأنه ثبتهم

فيها وأيدهم بالملائكة بشري لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الاذى والفتنة والصد عن سبيل الله : وتكلم فيها عن السلم والجنوح اليها متي جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الاسرى الى غير ذلك من الاحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر الى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فان عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها، وقريش كانت بين التسعمئة والالف وعندهم من العدة ماليس مع المسلمين ، وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة علي دينهم والحفيظة علي شرفهم ما لايخفي مكانه ، ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم مايستغرب فان الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أعز شيء في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهم الواحد منهم أن تحين منيته لانه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة إمدادات قوية يراها متوالية الورود

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر ابن الحارث

يارا كباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بان تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني اليك وعبرة مسفوحة ... جادت بوا كفها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أمحمد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم ـ ان كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه هذا الشعر ـ لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة الاسبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفى مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مئتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتي كان من المدينة على نحو بريد، ثم خرج من الليل حتي أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بني النضار المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته، حتي أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان، وسميت بغزوة السويق لكثرة ماطرح المشركون من أزوادهم التى أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال ابو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإني تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم

سقاني فرواني كميتاً مدامة ... على عجل منى سلام بن مشكم

ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لأفرحه أبشر بغزو ومغنم

تأمر فان القوم سر وإنهم ... صريح لؤي لاشماطيط جرهم

وما كان إلا بعض ليلة راكب ... أتى ساعياً من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة

أوقريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فاقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كله أوالاً قليلاً منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ بحران — وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر، ثم رجع ولم يلق كيداً

أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم — كما قاله ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة .. وظهر منهم بعد بدرما كان خافياً من عدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم و بين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع ، سببها تعدى رجلُ من اليهود على امرأة من العرب تعدياً معيباً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهودي فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه ، وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها الى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشاً حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن

وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة ـ ماء من مياه نجد ـ فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الاشرف

كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيء ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتي قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاشعار و يبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذى بهجة تأوى إليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
و يقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا: فليت الارض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع

نبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات و يجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحمى على الحسب الكريم الاروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتي آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الانصار فقتلوه جزاء خيانته لعهده

المحاضرة الثالثة عشرة

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب و رجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشي عبد الله بن أبي ربيعه وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أباسفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا و اجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحي الذى منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد من عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على إن رجعت أن أغنيك وإن أصبت ان أجعل بناتك مع بناتى يصيبهنّ ما أصابهن من عسر و يسر ؛ يخرج أبو عزة يسير في تهامه و يدعو كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطيء بها فقال له اخرج مع

الناس فان قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعهما من بنى كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنزولهم استشار وأصحابه أيخرج إليهم أم يقيم في المدينة ؟ ؟ فقال له عبد الله بن أبي بن سلول — وكان رأساً فى الانصار الا انه كان يضمر نفاقاً — نري أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأي رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلي بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال (١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغي لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام فى ألف من أصحابه حتي إذا كان بالشوط انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصاني ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضي رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادى إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتلن أحد منكم حتي نأمره

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصري كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

بالقتال . ثم تعبي عليه السلام للقتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لاصحاب اللواء من بني عبد الدار يابني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا فاما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، نهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً اذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلومون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدى وعلي بن أبي طالب وغيرهم فأبلي المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتي كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها — الا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتي جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتي دهشوا ، ومما زاد في دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع

عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص حتي خلص العدو إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي رمي بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتي استوي قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فاجهضوهم عنه وقاتلت في ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الانصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلي الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع في ظهره وهو منحن على رسول الله حتي كثر فيه النبل ومنهم سعد بن ابي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب ابن مالك أحد الانصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار إليه عليه السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض معهم نحو الشعب معه كبار أصحابه وذوو الاثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره الى الشعب أقبل أبي

ابن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد الى مكة وهو الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام

ولما انتهي إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من ثار بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته — بحيث يسمعه من في الشعب — وقال أنعمت فعال: إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعل هبل، فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لا سواء: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إليّ يا عمر، فقال له الرسول ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر ثم نادي أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله مارضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فأرسل علي بن أبي طالب فقال اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدن مكة وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها الاسيرنّ إليهم فيها ثم لاناجزنهم فخرج على في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون الى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً الي المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعي اليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بني دينار من الانصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً ياأم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر اليه ؟ فأشير لها إليه حتي إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم الاحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لايخرج معنا إلا من حضر يومنا

بالامس ، وانما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فخرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتي بلغوا حمراء الاسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء وقد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يامحمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الاسد وسار حتي لقي أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ، وقد جمعوا الرجعة فانهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرنّ على بقيتهم فلنفرغنّ منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ماوراءك يامعبد ؟ قال محمد قد خرج فى أصحابه بطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماضيعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال ويحك ماتقول قال والله ماأرى أن ترتحل حتي تري نواصي الخيل فثني ذلك أباسفيان ومن معه

والذي اعترض به القرشيون علي أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر فى نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على

المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتي إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لانهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة فخافوا أن يعلم المتخلفون ان إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة فى وادى أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم فى يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أباسفيان كان يريد أن يعرج علي المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فان القوم قد حربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الاسد ظفر بأبي عزة الجمحى الذي من عليه بعد بدر ، فقال له أقلني يا محمد فقال عليه السلام والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا

أنزل الله في هذا اليوم من القرآن ستين آية من القرآن فى سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من اول قوله تعالى «وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» إلى قوله فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم

يوم أحد (٢) إن صفة الصبر وعلو النفس لايتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم-بألطف إشارة-على ما كان من ضعفهم حينما اشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الاسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلي الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم (٧) اعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) (٨) الثناء على شهداء الموقعة والاخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار الى ما كان من خروجهم ثانى يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما

وقد قيل في هذه الوقعة كثير من الشعر العربي قالته قريش والمسلمون نقله ابن هشام فى سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاماً فلو

أرسلت ممنا نفراً من أصحابك يفقهونا في ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلمونا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم في رحالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لا نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران ابيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة -حين قدم ليضرب عنقه- أنشدك الله يازيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك قال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلى فيقول أبو سفيان مارأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الاسنة العامرى فعرض الرسول عليه الاسلام فلم يسلم ولم يبعد، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال عليه السلام إني أخشي عليهم أهل نجد فقال: أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو

الساعدى فخرجوا حتي نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتلة ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية ورعل وذكوان فاجابوه الى ذلك فخرج بهم حتي غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتي قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين: عمر و بن أمية الضمري لانه كان في الرحال وكعب بن زيد فانه ترك بالمعركة جريحاً قدظن موته فارتث من بين القتلي وقد كان عمر و أسر لماذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد الى المدينة و بينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمر و

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأديهما

المحاضرة الرابعة عشرة

اجلاء بنى النضير ـــ ذات الرقاع ـــ بدر الآخرة ـــ الخندق وقريظة ـــ بنى المصطلق

اجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام الي بني النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلتين اللذين قتلهما عمر و بن أمية وكان بين بني النضير و بين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم ياأبا القاسم نعينك على ماأحببت مما استعنت

بناء عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال ـ ورسول في نفر من أصحابه ـ فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقي أهل المدينة الى بنى النضير أن أثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وأن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم علي أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فرضي الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار الى الشام

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم بين حكم الاموال التى تركوها وسماها فيئاً وجعل أمرها للرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) ثم عذر المسلمين علي ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد، وإنما كان باذن الله ليضعف به أمر العدو

ثم أمر المسلمين بالتقوي وأن تنتظر النفس ماقامت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الاولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتي إذا نزل نخلاً لقي بها جمعاً عظيماً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر أباسفيان أما هذا فانه خرج بقريش حتي بلغ مجنة أو عسفان ثم بداله فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وان عامكم هذا عام جدب واني راجع فارجعوا فرجع الناس، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على مايكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بنى النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم جماعة من بني وائل حتي قدموا امكة على قريش فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم عليه حتي نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر

ذلك قريشاً ونشطوا لما دعوهم اليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر حتي أتوا غطفان فدعوهم الي مثل مادعوا اليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قد تابعوهم علي ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن في بني فزارة والحرث بن عوف في بني مرة ومسعر بن رخيلة في بني أشجع ابن ريث

لما سمع الرسول بما أجمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسي وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة ومازالوا حتى أحكموه

ثم جاءت قريش ومن معها حتي نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتي نزلوا بذنب نقمي الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتي جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام

خرج حي بن أخطب النضيري حتي أتي كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده علي أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حي الباب فأغلقه دونه فمازال يكلمه حتي فتح له بابه ثم قال له — إني قد جئتك ياكعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتي انزلتهم بذنب نقمى وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال

له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحي فانى لم أر من محمد الاصدقاً ووفاءً فلم يزل حي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتي نقض كعب بن أسد عهده وبريء مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهي الخبر الى الرسول والى المسلمين بعث سعد ابن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً فى مركز جيشه فلما انتهى السعدان الى بنى قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد؟! فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد ابن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان الى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين.

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الاحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزاري والحرث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الامر أرسل الى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأي فقالا يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل

شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برزله شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يارسول الله إني أسلمت ولم يعلم قومي باسلامي فمرني بما شئت فقال له عليه السلام انما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتي بنى قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال يابني قريظة قد علمتم ودى إياكم وخاصة مابيني وبينكم وان قريشاليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدروا أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولاطاقة لكم به ان خلا بكم فلاتقاتلوا مع القوم حتي تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم فقالوا لقد أشرت بالرأي ثم خرج حتى أتي قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى لكم وفراقي لمحمد وانه قد بلغنى أمر قد رأيت

على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم · إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمد وقد ارسلوا اليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك ان نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتي نستأصلهم؟ فأرسل اليهم أن نعم فان طلبت منكم يهود أحداً من اشرافكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً، ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان الي بني قريظة عكرمة بن أبي جهل فى نفر من القبيلتين فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتي نناجز محمداً فقالوا لهم ان غداً السبت، وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتي تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا الى بنى قريظة إنا والله لا ندفع اليكم أحداً من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعو من القتال حتي يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ الى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الاحزاب من الخلاف أرسل حذيفة ابن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا ابو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان

الي جنـبي فقلت له من انت؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيـان يامعشر قريش إنـكم والله ماأصبحتم بدار مقام لقـد هلك الـكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة و بلغنا عنهم الذى نـكره ولقينـا من شدة الريح ماترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ماأطلق عقاله الا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين الى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم اذا جاءهم عدوأ كثر منهم عدداً فـكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منـه الأناة في ملاقاة الاعداء واضطروا ـ بحكم ماهم فيه من الشدائد ـ أن يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الاعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بنى قريظة لا عهدلهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام ـ بعد انصراف الاحزاب ـ أن يتوجه المسلمون الى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسـلمون اليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلتهم فنفذ الحكم فيهم وكان الاوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله ابن أبى في مواليه من قينقاع باجلائهم فلم يرض

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الـكأس المرة من يد هرقل بعـد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى

الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الاحزاب فى سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذازاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الاحزاب (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا إيماناً وتسليما) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الاحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله وقدمات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الاحزاب انضم الى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومى وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريين بعد ذلك

بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة -بعد الخندق- الى جمادى الاولى سنة ٦ وفيه خرج الى بني لحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتي نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا فى رءوس الجبال فعاد الى المدينة

ذي قرد

لم يقم بالمدينة الا ليالى قلائل حتي أغار عيينة بن حصن -في خيل من غطفان- على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الاكوع الاسلمى فاشرف فى ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل و يقول خذها وأنا ابن الاكوع فاذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة . بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الاكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع !فترامت اليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتي أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين الى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة الى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له، وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم

قالت عائشة فلقد اعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة الى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان قد أراه الله فى منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين : فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه فأجابهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له فرجعوا الى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنا العرب !! ثم بعثوا اليه رسولاً آخر من بنى عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الاحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادى رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا إجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يامعشر قريش ما على هذا حالفنا كم أيصد عن البيت من جاء معظماً له؟! والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لا نفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يامحمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا يحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع الى قريش وقال لهم يامعشر قريش قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك - عمر بن الخطاب ليرسله الي قريش حتى يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يارسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه الى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وانما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له فخرج عثمان الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ابن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فلما بلغت تلك الاشاعة رسول الله قال لا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعا أصحابه الى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الاشاعة

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له إئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً: فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع

الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه .

(١) إن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة، واذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

(٣) من أتي محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل أكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر فى عهد قريش

وبينا الكتاب يكتب اذجاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت الى المسلمين فلما رأي سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد إلي المشركين يفتنونى فى دينى

ولم تكن هناك حيلة الا أن يرد أبو جندل ـ عملا بوثيقه الصلح ـ عملا بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق)

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله ألست برسول الله قال بلى ؟ قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى فعلام نعطى الدنية في ديننا قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى

لم يبق بعد ذلك الا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا الى هديهم ينحرون ثم حلقوا رءوسهم : أنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سمت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فان الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب الا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحي فى نيل ذلك إنما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون — ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الاعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج الى الحديبية وأبان ما سيعتذرون به ووبخهم على مافعلوا لانه لم يقبل اعتذارهم

ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الاسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا الا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ماحل بهم وباخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرم السنة السابعة حتى حل بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من أرضهم واذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد الى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول الى النجاشى عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين

صدوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل اليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد فى جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الاسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف الى المدينة فى ذى الحجة

مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الازدي، وكان رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة، فخرجوا فى جمادى الاولى سنة ٨ حتي نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل (١)

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم اورشليم سنة ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ماقيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من اورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو انفذ لهم بعض قواده ليردوهم

قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم اليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو، وهم في العدد القليل، فساروا حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقي الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر ابن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فاخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أميرلهم فاتفقوا على خالد بن الوليد ، وفي ذلك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش الى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لان غاية ماراه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً في جانب مئتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون اذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحاول أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان الا اثنا عشر نفراً

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم - كما قدمنا - وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين الحيين فى الجاهلية دماء، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا قائدهم نوفل بن معاوية الديلى ورفدتهم قريش بالسلاح، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا الى صفوف بنى بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد فانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة، ويطلب منه النصر وفاء بالعهد، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من خزاعة حتي أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد، ثم انصرفوا راجعين الى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل الى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فلم ينجح، وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا الى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً الى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل اليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطباً عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شئ بعد أن فعلت مافعلت

ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين إليهم . و بينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام و بديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين . وكان أول من لقى أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع اليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان الى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يارسول الله قد أمنته فقال للعباس إذهب به الى رحلك فاذا أصبحت فأتني به فذهب به حتى اذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الا الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فان في النفس منها حتي الآن شيئاً ، و بعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب الى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتي دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش الا مناوشات لاتستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار الى البيت فطاف به

سبعاً على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعي به فهو تحت قدمي هاتين الا السدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء :الناس من آدم وآدم من تراب ثم قال يامعشر قريش ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا! خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال

اذهبوا فأنتم الطلقاء

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها فهى فى أعقابه إلى اليوم. ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل فى الاسلام هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم الا القليل ثم أسلموا بعد : يعتبر فتح مكة حداً فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين مابعده فان قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الاخير على الدين الوثنى في جزيرة العرب

أمر حنين

الا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت الى مالك بن عوف النصرى ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير

الى حرب المسلمين، فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوزان وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهىء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا الي أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه فى موقفه الاعدد قليل! فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الانصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الا ساعات قلائل حتى هزموا العدو وهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه

هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله انا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فمن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر الغساني أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم واذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله الى المسلمين و بالمسلمين الى رسول الله فى ابنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ماقال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام الى هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مئة من الابل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً الى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه الى المدينة لست ليالٍ بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة الى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن

يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب اليه وأسره وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا الى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

التشريع في المدينة

بينا فيما سبق أن الذي نزل بالمدينة من القرآن احدى وعشرون

سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن

و يمتاز المدنى من القرآن عن المكي منه بأمرين (الاول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثانى) ماتناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ماشرعه لاصلاح النفوس وتهذيبها وهى التى يطلق عليها المسلمون اسم العبادات والاجتماعية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة فى اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة فى سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف فى حال تقابل الصفوف وقد بينها فى سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع فى المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع فى المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الاول) فى قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) (الثانى) فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه

لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) الى قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً

وقد بين فى سورة الحج المكية شىء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام) الآيات.

ولم يحج عليه السلام الا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها فى الكتاب شىء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها فى سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونهما من العبادات لم نستجز أن نخالفهم والافواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لان الغرض من الزكاة إعانة الاغنياء للفقراء فهي أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاما يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله.

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الاول — ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجي

ولكننا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالامر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيه الى الشخص وحده وانما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الاحوال الاجتماعية العائلية ان رضي لنا أهل اللغة باسم العائلة والا سميناها الاحوال البيتية لأنها ترجع الى تكوين البيت ونظامه

الثاني — ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث — ما يتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمي عقدته (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلاً من الزجين لباساً للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعني هذا أنكم تسكنون اليهنّ ويسكن اليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء بينهن فنهي في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة النساء عن تزويج نساء بينهنّ من أول قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الآيات

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة الى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والاسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الانسان الي التنبه

جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهي عنه الشارع فانهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامي كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم إن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامي فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع) يعنى إن أمنتم أن تعدلوا فانه قال بعد (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى اليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرة امرأته (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهنّ بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة فى البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فان الكتاب يقول (ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب مايحصل بين الزوجين من النفور فأول الامر شكك الزوج فى وجدانه اذا أحس من

نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأي زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فانه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل . ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم ان خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهله للسعي في التوفيق حتي لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين اذا كان الحكمان يريدان اصلاحاً فقال (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما)

واذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق امراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً لهما (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع فى الكتاب نظاماً للطلاق لو اتبع كما جاء لافاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هى لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام فى سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لان ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها وينظر الزوج امرأة غيرها فربما رضيته ورضيها فان حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثانى وظنت هي وزوجها الاول أن فى امكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح

عليهما إذا تراجعا (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها ان لم يبد للزوج أن يعود الى عشرة زوجته باحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه معززة وجها لا تخرج ولا تخرج الا أن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة اقرؤا ان شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله فى حكمة بقائها فى بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ثم قال (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة اذا طلقت بمتعة عوضاً عما يكون قدنالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وقال (فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا) وقال (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثماً مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا؟)

فلا نرى الكتاب اهتم بامر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

(٥) فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضاً بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما

قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم بين تلك الأنصباء بيانا تاما في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم نارا وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف فى أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوى فالذين يقولون ليس في الاسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جدا عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات — الحدود — الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات فى مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان

(٢) نهي عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهي ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه فى سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها امراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدني أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة ان لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم الى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدي أمانته

هذه هى الأصول العامة التى اعتني الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور فى موضعين (الاول) (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتي يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكي لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) الثاني في آخر السورة حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) الى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن الا ماظهر منها وهو ما كان علي الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح ابداء الزينة بحضر أقارب لهن سماهم في سورة النور وأمرهن فى الاحزاب بأدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتي لا يتعرض لهن احد

فى طريقهن" كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر فى التحية أن يحيا الانسان بأحسن من تحيته أو بمثلها الى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم و إلفهم

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت في سورة الاسراء أن من قتل مظلوماً فقد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولى الدم عند العرب أقرب عاصب للانسان (و يتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) و بين فى البقرة أن كتب القصاص في القتلى وأن القصاص لا ينبغي ان يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك الى ساداته والأنثي بالانثي ولا ينبغي ان يتجاوز ذلك الى رجالها او عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولى وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسي القصاص فقال (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة (الاول) حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة (الثاني) حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان فى سورة النور (الثالث) حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد (الرابع) حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله

ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلهم الامام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الارض ، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فان الكتاب قال فان تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم وهذان الحدان فى المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذى شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساساً لاعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا اليه

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا فى دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالانصار وكاد الاسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أوخافوا على سيادتهم أن يزيلها الاسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه الا أنهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين فى الاسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فانى لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبدالله ابن أبى بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه فى قميص له ونزل في قبره مع أنه كان سبباً عظيماً فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف

قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن في هذا قوة كبرى

ودخل فى الاسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل اليهم الرسل ويكتب اليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهى الحال مع قريش ، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فان انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجها لوجه كل ذلك، كان مما يجعل الدعوة فى سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الاسلامي فكان ذلك سببا مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم باسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الاثر . حتي اذا فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فان الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال الا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الاباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا قد دانو بالاسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فممن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلي الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الاسلام عم من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الاسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا

عليه ضرب لهم قبة فى ناحيـة مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الاسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقـال لاخير في دين لاصلاة فيه وطلبوا منـه أن لايكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص منهم وكان أحدثهم سناً لانه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله ياعثمان تجاوز في الصلاة وأقدر النـاس بأضعفهم فان فيهم الـكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد الى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج الينا يامحمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتـكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس ابن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والانصار ثناءً دينياً . ثم قام شاعرهم فالقي كلمة يفتخر ـ وأولها

نحن الـكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ماقال حسان وأولها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قـد بينوا سـنة للناس تتبع
يرضي بهم كل من كانت سريرته تقوي الاله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة ... ان الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلي من أصواتنا ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام

وممن وفد من قيس: بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتي من قريش؟! ثم سار اليه مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال ياابن عبد المطلب اني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ علىّ في نفسك قال لا أجد في نفسى فسل عما بدا لك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولا؟ قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الانداد التى كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع

الاسلام كلها حتي إذا فرغ قال فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض واجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم خرج حتى أتي قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما بعد أن علمهم الاسلام وشرائعه

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلي وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالاسلام

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلي بلادهم ارتد مسيلمة وادعي النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكى بها القرآن

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام في زيد ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءني الا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير باسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وبعث اليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب اليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس فى الدين

وممن كتب إليه باسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنني　　　سلم لربي أعظمي ومقامي

ثم قدم عليه وفد بني الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المشعار المكني بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجاً حتي كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة الا أنه لا يمكننا القول ان الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان في وسطهم كثير من الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعدما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم) ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها

قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

أما الحاضرون منهم فى المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته الي الملوك ورؤساء الامم الى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الازمنة وتلك الحكومات لابد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لانهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته اذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم الى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا الى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فان إثم الاكارين عليك)

وننقل هنا ما رواه ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتي أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لا نجد أمنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة نقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم وكانوا قد استلبوه إياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على

قدميه متشكراً لله حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقي عليه الرياحين فلما انتهى الى إيليا وقضي فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم اصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه الى السماء فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً قال أجل رأيت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر قالوا له ايها الملك مانعلم أمة تختتن الا اليهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الي كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها فقال أيها الملك ان هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فاذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله انا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحماً قال أبو سفيان أنا فقال أدنه فاقعدني بين

يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فان كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوا عليَّ ذلك ثم يحدّثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي مايدعي قال فجعلت أزهد له شأنه وأُصغر له أمره واقول له أيها الملك ما يهمك من أمره انشأنه دون مايبلغك فجعل لا يلتفت الى ذلك ثم قال أنبئني عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسباً قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل مايقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فاخبرني عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد قال فاخبرنى عمن تبعه أيحبه و يلزمه أم يقليه و يفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقه قال فاخبرنى كيف الحرب بينكم و بينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه فى هدنة ولا نامن غدره فوالله ما التفت اليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي اذا أخذه لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن اتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء

وكذلك اتباع الأنبياء فى كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه و يلزمه أم يقليه و يفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الايمان لاتدخل قلباً فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتنى ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى على الاخرى وأقول أى عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بنى الاصفر يهابونه فى سلطانهم بالشأم . وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فاظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ما قلت لاختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب فى احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حيثما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى المنذر ابن الحارث بن أبى شمر الغساني صاحب دمشق وكتب اليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بى إني أدعوك الي أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني أنا سائر اليه ولم يسلم

و بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الاسلام و يطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الاسلام كما أعلن

بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسري عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله و رسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك إثم المجوس) فمزق كسري كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسري الي باذان عامله على اليمن ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فاختار باذان رجلين ممن عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه الى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي صلي الله عليه وسلم قال له أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسري قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي وقالا قولا تهديديا . فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسري قد قام علي أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى و ينتهى الى منتهي الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتي قدما على باذان فاخبراه الخبر و بعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي اليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سبباً فى

سلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الابناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم بمارية القبطية أم ابرهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفي وبعث العلاء ابن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلي جيفر وأخيه عباد الأزديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته و يطلب منهم اتباعه وكان هذا الاعلان سبباً فى إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه الا وممظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه و فى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

صفته وأخلاقه و بيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الاسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج الى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة ـ حينما أخبرها بأمره أول مرة ـ ما كان الله ليخزيك أبداً انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الاخلاق

الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فانه يستحيل أن ينال بالشدة قلب لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الاخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروي عنه عليه السلام بني الدين على النظافة وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى أنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء — لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الامة الجافية حتي كان أحب الى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج بعد معونة الله وتوفيقه إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان و بلاغة القول — كان عليه السلام من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع و نصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها و يحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني

وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير في صحبة من لا يري لك ما تري له — الناس معادن — ما هلك امرؤ عرف قدره — المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم — رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم - ان أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عندالله - اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير. قال له أصحابه يوماما رأينا الذى هو أفصح منك فقال وما يمنعني وانما أنزل القرآن بلساني لسان عربى مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بنى سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذى مدده الوحي الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال له (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله. كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيدمع كثرة الاذى الا صبراً وعلي اسراف الجاهل الا حلما قالت عائشة ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين

قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فان كان إثما كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لو دعوت عليهم فقال انى لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل ان لم أعدل خبت وخسرت ان لم أعدل ونهي من أراد من أصحابه قتله .لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم فى جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك صبره علي قسوة قريش وأذي الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم ـ كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى بهذا وصفه كل من عرفه قال جابر ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع الى بلده وقال أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من

لا يخشي فاقة وأعطي غير واحد مئة من الابل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام اليها يقسمها فمارد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الانصار يارسول الله أنفق ولاتخف من ذي العرش إقلالا فتبسم صلي الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة ـ كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع الا وقد احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب: فماروٴى أحد يومئذ كان أشد منه وكان اذا غضب ولا يغضب الا لله لم يقم لغضبه شيء وقال عليّ كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعا قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والاغضاء ـ كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال ابو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة كان النبي

صلي الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحـد مايكرهه لم يقل مابال فلان يقول كذا ولـكن مابال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه ولا يسمي فاعله وروى أنه كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد وأنه كان يكنى عما اضطره الكلام اليه مما يكره

حسن العشرة والادب و بسط الخلق مع أصناف الخلق — قال علىّ في وصفه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس إصحب رسول الله قال قيس فقال له عليـه السلام اركب فابيت فقـال اما ان تركب وأما ان تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم و يكرم كريم كل قوم و يوليـه عليهم و يحذر الناس و يحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه يتفقد أصحابه و يعطى كل جلسائه نصيبـه لايحسب جليسـه أن أحـداً أكرم عليـه منه من جالسه أو قاربه لحاجـة صابره حتي يكون هو المنصرف عنـه ومن سأله حاجـة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قـدوسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنـده فى الحق سواء وكان دائم البشر سهـل الخلق لـين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحـاش ولا عياب ولا مـداح يتغافـل عما لا يشتهى ولا يؤيس منـه وكان يجيب من دعاه و يقبـل الهدية و يكافىء عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلي الله عليـه وسـلم عشر سـنـين فما قال لي أُفّ قط !؛ وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه و يخالطهم و يحادثهم

ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضي في أقصي المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس اليه أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم). روي أن اعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت اليك يا اعرابي قال الاعرابى لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت اليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتي يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم وأعلم

فتوجه لها بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم — قال عبد الله بن أبي الحمساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانه فقال يافتي لقد شققت على انا ههنا منذ ثلاث انتظرك . وقال انس كان عليه السلام اذا أتي بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة وكان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال ان آل أبي فلان ليسوا لى بأولياء غير ان لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني أحب أن أكافئهم . وكان يبعث الى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبراً . عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصاً فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود

المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجالس جلس وكان يدعي الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال اللهم جعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة هذا وقد أهدى في حجه ذلك مئة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتي كاد تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس ابن متى ولا تفضلوا بين الانبياء ولا تخيروني على موسي . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له هون عليك فاني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة ـ كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوره وأعداؤه وكان يسمي قبل نبوته الامين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم الى رسول الله صلي الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الاسلام وروى عن على أن أبا جهل قال له أنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال (قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتي إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر !! لا والله ماهو بساحر . وفي حديث على في وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ

أحداً بقرف أحد ولا يصدق أحداً على أحد أي لا يسمع وشاية الواشين وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانه لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثني عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعلى خلق عظيم) وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه الى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الاباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجاً مناصرين موازين ولو لم يكن له الا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلاً عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوى في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الاسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها . وقد كان له منها أبناء و بنات فأما الابناء فلم يعش منهم أحد فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكنّ أربعة

زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة — فاما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبى العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص الى مكة سرح زينب حتى اذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً الى الشام وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد الى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فرد النبى صلى الله عليه وسلم اليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول . وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الاخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لاغراض كثيره سنبينها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنتان توفيتا فى حياته احداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وهاهي أسماؤهن

(١) سودة بنت زمعة بن الاسود من بنى عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت بكراً و يقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب و كانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت قبله عند ابن عمها أبي سلمة بن عبد الاسد

٥) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب من بني أمية وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

وهؤلاء الخمس كلهن من قريش تضاف اليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون — عبد مناف ـ أسد بن عبد العزى ـ مخزوم بن يقظة تيم بن مرة ـ عدى بن كعب ـ عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية وهي بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابناً للنبي صلى الله علية وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشي اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب فأخفي في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه

وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب ان يفارقها — وتخفي في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو الذي أبدته الآية — وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه — تخشي الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه — ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد ولقد هدم قاعدة التبني قولا كما هدمها فعلاً فقال أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله وقال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وهي التي عتق بسبب زواجها هذا من كان أسر أوسبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بني هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى من بني عامر بن لؤى

(٩) صفيه بنت حيي بن أخطب من بني أسرائيل، وكانت قبله عند كنانة ابن أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاثي توفي عنهن

(١٠) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمي أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف وهذه توفيت في حياته

هؤلاء احدى عشرة سيدة تزوجهن الرسول و بنى بهن منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التي أهداها اله المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذى توفي صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأي في ان يجمع في بيته نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فان الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة اكبر مساعدله ومبعداً عنه أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة صاهر اكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب و بني إسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية

وكان لامهات المؤمنين فضل كبير في نقل احواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة فانها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجدون في سورة الاحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

ختام القرآن

أعلن القرآن ان نزوله قد انتهى في يوم الحج الاكبر من السنة

العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة الا أنها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته وقد تم ذلك في خلافة ابى بكر (راجع خطابنا الذى ألقيناه بنادى دار العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى فى تلك السنة)

الوفاة

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض فى بيت عائشة فاذنّ له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وأن الانصار على هيئتها لاتزيد وأنهم كانوا عيبتي التي أويت اليها فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وأمر أبابكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وحينذاك خرج أصحابه الى سقيفة بنى ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل فى قميصه وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الاربعاء وكان قد صنع له لحد فى الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت فى الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية

المحاضرة الثامنة عشرة

— الخلافة —

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لامته (الاولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماماً للمسلمين تجتمع اليه كلمتهم يوجههم الى الخير و يبعدهم عن الشر واليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى اليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد الا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية ان ساغ لنا أن نسميها

كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التي أختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بداً من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافه المسلمين . ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الاول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أي اشارة الى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وأن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الاولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الاولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان أقرب الناس اليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل إبنا أبي طالب ويمتاز علي من بينهم بسبقه الى الاسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بانه العاصب الوحيد له ان كان هناك إرث.

رأي عدم التخصيص كان للانصار فانهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها وان لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وانما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من امامة المسلمين انما هو توجيههم الى الصلاح وابعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك الى بيت أو قبيلة بل الى ما فى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن وهى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأي التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأياً للجمهور لما رواه أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفاً عن علة هذا التخصيص بقوله ان هذا الامر ان تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة انما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فاذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيماً وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان

من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في حديث له مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور

مكث الرأي الأوسط سائداً والأخير خامداً لا يجد له محركاً حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الاسلامية دعاة له ينبهون الناس اليه ويقبحون من خالفه اذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الاحساس فسرعان ما تنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لانه قام في وجهه نصف الامة قادماً اليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها إقرار الامر في نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة واحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من بني هاشم

عادت فكرة الشيعة الى الخمود ولكن السيوف وان تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً اذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علي يرون هذا الحق لهم ارثاً لا ينازعهم فيه الا ظالم

وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد علي الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتمثيلاً الا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لانه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون بها العيون فما كان أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا الى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى رد الحق لأهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى على وبنى العباس فى استحقاق الخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بنى العباس وجدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس مع اضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول عم والثانى ابن عم فاشتغلوا فى الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً فى دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراساني فتم لهم الامر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس الى الرضا من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها الى علي وأهل بيته أكثر من توجهها الي بني العباس فلما تم له الامر أعلن اسم عبد الله السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل على في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بنى على كافياً لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم

الا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بنى العباس كما كانوا يخرجون على بنى أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق سكت على ما في نفسه

ذهب الفارون إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها كبير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتى ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم في السر حتي كان شيء من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية فان ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر الى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان ـ اذ ذاك في الممالك الاسلامية ـ لمصر وملوكها فساعدوا على اعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولاً لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف فى البيت الذى يكون منه خليفة المسلمين

شكل الانتخاب

لم يرد فى الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهمّ الا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمر شورى بينهمَ) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الامر للمسلمين حتي يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما. ولننظر ماسار عليه المسلمون فى ذلك وها هي طرائقهم

(١) الطريقة الأولى طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة وتشاوروا فى الأمر ثم انتخبوا أبابكر ـ بعد حوار وجدال ـ ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج الى السرعة فى البتّ حذر الاختلاف والفشل. ويظهر أن المجتمعين فى السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلي الاسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابةً عنهُ فى وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الامر بسرعة فمد يده إلى أبى بكر

فبايعه فتابعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال ان بيعة أبى بكر كانت فلتة وقي الله شرّها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أذ أمير المؤمنين مات لبايعت فلاناً : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيئة التى لها الحق فى انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية: أن يعهد الخليفة الموجود الي شخص آخر بعده الخلافة وهى الطريقة التى كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من أخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية فى انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة: طريقة الاختيار الشوري من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فان عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لا يتطلع لامر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للاغلبية الرأي المقبول فيجب على الاقل الرضوخ لحكمها والا اعتبر خارجاً يستحق القتل واذا تساوت الاصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر فى مستقبل الامة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها

طريقة شورية ناقصة لانه لم يكن القصد منها أخذ رأي الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وانما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لاحدهم حتي لايجد محبو الخلافة مجالا للخلاف و يظهر لنا أن عمر كان محسابأن كلا منهم يتطلع لان يكون خليفة وخاف على الامة الشقاق من بعده فعهداليهم عهده ونظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر فى ذلك من قبل بعدأن سمع عبارة الرجل التى سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الاطراف لان الطريقة الاولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أهم الامة بأسرها أم هم أفراد مخصصون؟؟ وان كانوا مخصوصين فمن هم ؟ وغاية ماأمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد، ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ أهم ولاة الامصار أم قواد الجيش أم أعيان الامة ؟؟؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعا للتأويل كما حصل عند استخلاف على . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس و يكون قادراً علي حماية مصالحها وان يكن من الممكن فى بعض الاحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة ـ فى حقيقة الامر ـ كالثانية اذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لانها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الامام لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين

فى الحواضر الاسلامية كان أهل المدينة ـ وحدهم ـ هم الذين ينتهي اليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معهم رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد فى الامة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبري : كان ممن يترقب الخلافة ويري نفسه لها أهلا معاوية بن أبى سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لان بيعة على ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا الى شىء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوي فى صاحبه وأريد منهما أن يحكما فى أهم مشكلة تهم الامة الاسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لانهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث فى خلعهما معا وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شىء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوي الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم الا لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون فى شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح فى نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق فى أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأو أن جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لامرهم حدوداً مقررة ولذلك تطرق اليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم

الخلفاء بما عندهم من القوة حتي لم يكن منهم فائدة لا لانفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة : انتهى أمر على واستقر الامر لمعاوية بفضل قوته وسياسته و يسميه التاريخ بالخليفة المتغلب و في نظرنا أن خلافته و بيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لان معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة فى الشريعة يقال ان أحدهما تعداها الا ان سرنا على رأي من يقول أن عليا معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد علي أن الخليفة هو الذى يعينه كما هي طريقة أبى بكر فى عهده لعمر الا أن بينهما فرقا وهو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوي قرابته بل من بطن آخر و بنوا أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتي تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد الى ولده يزيد ولكنه امتاز في عهده بأن طلب من ولاة الامصار أن يوفدوا اليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى في بقاء الامر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الامر، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لانفسهم فرشحوا ابنه يزيد للامر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم علي ذلك

غيرهم وبهذا أخذ إعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد الا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لارادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التى حصلت فى عهد يزيد من خروج الحسين بن على وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد الى ابنه معاوية الا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء فى وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الامة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الامر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذى عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو احدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهى أول مرة ولى العهد فيها أثنان (١)

(١) ومن الغريب انه ما من مرة ولى فيها اثنان الا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فان اولهما كان يميل الى نزع ثانيهما اما لانه يتوهم انه يجتهد أن يتعجل الامور لنفسه ولا يكون ذلك الا بهلاك الاول واما لان الاول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذى جعل ولى عهد له فيجتهد فى نزعه واقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم اخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا ان عوجل لاخرجها عنه بل عن بنى أمية جميعا وولي يزيد اخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصا على الوليد حتي ساءت اخلاقه وولى السفاح عهده اخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسي ابن موسي فلم يزل المنصور بعيسي حتى أخره وقدم المهدي . وولي المهدى ابنيه الهادى ثم الرشيد فحاول الهادى ان يخلع الرشيد لولا انه عوجل وولي الرشيد ابنيه الامين ثم المامون فكان بينهما من الحروب ما ادى الى قتل الامين ومن الغريب أن اللاحق لايتعلم مما اصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بنى العباس فسارت على هذا النمط الا أنه فى عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير الى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم للخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم فى مصر والشام الا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بنى العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد علي اثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين الى آل عباس ليتسمي باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثمانى وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الاسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهى أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت ومع هذا لم يخل الامر من طموح غير الاكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فان نظامهم حفظ الملك فى بيتهم أكثر مما حفظه فى أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فانه كان منظوراً فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقها

الفرقة الاثناعشرية فى بنى الحسين بن على وسموا علياً ومن يليه الأئمة وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدي المنتظر الذى اختفى و ينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا فى ذلك فرقاً

لم يكن يحل الخلاف فى زمن من الأزمان الا بالقوة فهي التى تجعل صاحبها صاحب الحق ظافراً ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى فى جمع الكلمة على قانون يتبع فى انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية و يخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الامام أهو واجب على الامة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزله والزيدية ؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الامامية ؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأى الاسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأي الخوارج او يجب عند الأمن أو عند الفتنة كماهو رأي هشام الغوطي وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كماهو رأي الاصم ومن شايعه من المعتزلة ؟

(٢) شروط الامام وقد عدوا منها شروطاً لاخلاف فيها ومنها

شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ماتثبت به الامامة وهو النص من رسول الله أو من الامام الموجود و بيعة أهل الحل والعقد خلافاً للشيعة ثم قالوا لايحتاج الامر الى اجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لابد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الائمة أو لايجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولاي شيء يكون ذلك

(٤) من هو الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على ؟؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٦) ماحكم أمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الاحيان عديمة الجدوي من الوجهة العملية لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالاً لتلك المناقشات كان شأنها الا يهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الاسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ماهى عليه من غير حل محدد ترضاه الامة وتدفع عنه سبباً لاكثر الحوادث التى أضنت المسلمين وأوجدت ماسيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشرة

انتخاب أبى بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبى بكر — أخبار الردة

انتخاب أبى بكر

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الاوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الاوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهى ظلة كانت بالقرب من داره. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عبادة فان سعداً خطب فيهم مبيناً ما للانصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا، فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن.

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه

ليقوله في هـذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك! وكان أبو بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تـكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السـلام من قوله (الائمة من قريش) ثم قال فنحن الامراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور، فلما أتم خطابه قام اليـه الحباب بن المنـذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال يامعشر الانصـار املـكوا عليـكم أمركم فان الناس في فيئـكم وظلـكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصـدر الناس الاعن رأيكم أنتم أهـل العز والثروة وأولو العـدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنمـا ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليـكم أمركم أبى هؤلاء الاما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقاله هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ثم قال أنا جذيلها(١) المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يامعشر الانصار إنـكم أول من نصر وآزر فلا تـكونوا أول من بدل وغير فقام بشير ابن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يامعشر الانصار إنا والله لئن كنا أولى فضـيلة وجهاد وسابقة في هـذا الدين ما أردنا به إلا رضا

(١) تصغير الجـذل عود ينصب للجربي لتحتك به والعذيق تصغير العـذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد اليه

ربنا وطاعة نبينا والكدح لا نفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا عرضاً فان الله ولي المنة علينا بذلك إلا أن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الامر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هذا الامر عليك فانك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذهما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده اليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير ابن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت! أنفست على ابن عمك الامارة؛ قال لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم

ولما رأت الاوس ماصنع بشير وماتدعو اليه قريش وماتطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على بن أبى طالب ومن معه لانهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبى بكر لان جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

كلهم إذ ذاك فى المدينـة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبى بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل الي أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لاتدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وماعساهم أن يفعلوا بى؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي ثم قال قد عرفنا ياأبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله اليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنامن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحبّ اليّ أن أصل من قرابتى وبعد أن أتم كلامه قال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلماصلي أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعةوعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف

أول خطاب لأبى بكر

بعد أن تمت بيعتـه قام فى الناس خطيباً (١) فقال أيها الناس قدوليت

---

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها مالانفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم اجمالا

عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان صدفت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله وهذه الكلمة هي مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه اذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريتهم في القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه — حثهم على الجهاد الذي كان لابد منه — أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل و يكسب المعدوم وكان محبباً الى قريش يعرف من أنسابهم مالا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً إلى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر وكان له فى الدعوة إلى الاسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر

إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط ردّ على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب إخوانه: لما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الاسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضا أم رومان بنت عامر من بني غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتزوج في الاسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً - وتزوج في الاسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم. فذكور أولاده ثلاثة واناثهم ثلاث

أخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فانا نجد ظهر أخلاقه

﴿صدق العزيمة : الرقة﴾

وصدق العزيمة أن يبحث الانسان فى الامر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث و يستعين بآراء غيره إن كان شوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عليه حتي إذا رأي الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقاً هكذا كان أبو بكر.

والرقة أن يكون الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الانسان متردداً فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فاذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ماظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم هيأ بعثاً ليرسله الى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤته وكان في هذا البعث أبو بكر وعمرو وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتي كانت الوفاة و بويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبي شديد الاباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الامر أو أخر البعث لكان قد شرع للناس لاول مرة مخالفة ماأمر به الرسول أمراً حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه

التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم كلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟!! واشتد في الكلام مع عمر الذى كان يكلمه في ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلي الله عليه وسلم وتامرني أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لاسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له وهذا مقام كبير فى احترام ذى السلطان فى سلطانه وفى الحقيقة ذلك راجع الي احترام الامر النبوى حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماماً واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغى له أن يفتات عليه . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله (١)

---

(١) في لسان العرب . وفى الحديث انه اوصي امراء جيش مؤتة ـ وستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف اى ان الشيطان قد استوطن

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لولم يكن للقوم قوة ماأرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية؟؟

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاء المطلوب وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيهم دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله: فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين

رؤسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لان من كلامهم اذا وصفوا انسانا بشدة الغي والانهماك في الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش وفي حديث ابي بكر وستجد قوما فحصوا عن اوساط رءوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف وفي الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها

خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع مايعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة أستخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن تعرض نفسك فانك أن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فان أصيب بعثت آخر فقال لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى فخرج فى تعبيته حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعي سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الالوية عقد فى ذلك اليوم أحد عشر لواءا لاحد عشر أميراً وهم

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الاسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

(٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة

(٣) ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة

(٤) المهاجر بن أبى أمية ووجهه الى جنود الاسود العنسي بصنعاء ومعاونة الابناء

(٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان

(٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فى عمله

(٧) سويد بن مقرن الى تهامة اليمن

(٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه الى البحرين

(٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) عمرو بن العاص ووجهه الي قضاعة

(١١) خالد بن سعيد ووجهه الى مشارف الشام

وبعد أن عين الجنود والامراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) أرسله اليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال (وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بامره وأجابة للشيطان قال الله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإنى قد بعثت اليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا

قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار و يقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فاذا أذن المسلمون فاذنوا كف عنهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغي)

فنفذت الرسل الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام إلي أماني الشيطان بعد أن يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتي يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذي لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وإعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله

فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ماأفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول

بنو أسد وطليحة ومالك بن نويرة

كان طليحة رجلا من بنى أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن مارأى لنبي قريش فدعا إلى ذلك قومه من بنى أسد فشايعوه والتفت عليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت فى غمارهم غطفان الا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيىء بارض نجد . وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائى وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب الى قومه فأذن له فقدم عليهم فصار يفتلهم في الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فانا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل عدي خالداً وقال له أمسك عني ثلاثا يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك ففعل خالد ثم عاد عدي الى قومه وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ثم راجعوا الاسلام فعاد إلى خالد وأخبره ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتي بزاخة واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس

عيينة بن حصن الفزاوي بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له ألا ترى ما يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء قل نعم قد جاءني وقال ان لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياماً فان الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله فلا تعنيف عليّ ببعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من

تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت الى وكيع بن مالك سيد بني مالك ابن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بن أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على مافعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة مالك بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان فى سيف خالد رهقاً فان يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه ياعمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبني حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجهاً آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك ابن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها أتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوي الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة اشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الانصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل

مقاتلتهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والاقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذى استزل منكم مااستزل قالوا ياخليفة رسول الله : قد كان الذى بلغك مما أصابنا كان أمرا لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم ان هذا الكلام ماخرج من إلّ ولا برّ فأين يذهب بكم : وقد أقام خالد بعد فراغ الامر في واد من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والاسود العنسي

لما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلي الله عليه وسلم باذان الذي كان عاملا لكسري فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلما يتنقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول قام رجل من عنس إحدي قبائل قحطان اسمه الاسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الابناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن فى أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه : فارسل عليه السلام كتاباً على يد

وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل فى أمر الاسود أما غيلة وإما مصادمة وان يبلغوا عنه من رأو أن عنده نجدة ودينا : وقد صادف ذلك ان تغير الاسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحة الابناء في أمر اغتيال الاسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الامر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الاسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الابناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا علي القصر بشعار المسلمين وهو الاذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول المدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الاسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

لما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا الى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقي علي اسلامه من رءوس اليمن يامرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات ومازالوا كذلك حتي وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبى أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمر و بن معدى كرب ثم ذهبت الي كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبى جهل فحاربوا كندة حتي غلبوهم وأسروا الاشعث بن قيس سيد كندة و بعثوا

الى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فانها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يا معشر عبد القيس انى سائلكم عن أمر فاخبرونى أن علمتم ولا تجيبونى ان لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فان محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على اسلامهم أما بكر فانها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمى أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن أثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الاسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء إلى أبى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الاسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات فى جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر فى أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الابطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وماظنك بهذه النار التى

هاجت فى جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاجتها قبل أن تنقضى السنة التى لحق فيها الرسول بربه وأن الانسان ليحار بادئ بدء فى تعليل هذا الامر ولكن اذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام فى تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند واليهم فى مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبى بكر بأن له نفساً هي أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبي بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضباً شديداً ولم يكن هناك هوادة فى رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لاي سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لانه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول فى ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان التاريخ يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف حصل ذلك فى وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلباً

المحاضرة العشرون

ظهور الامة العربية — حال الفرس والروم لاول عهد أبي بكر — غزو الفرس — غزو الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الازمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والامم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وان كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الاسلام فكوّن منهم تلك الامة العظيمة التي سلبت أقوى الامم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الامة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والغلب من قديم الاعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الاكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهى مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودولة الاكاسرة هذه تكوّنت منذ وجد أردشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت من عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أردشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما

يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك وأمراء الاقاليم يسمي واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتي كان كسرى أنو شروان الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لعهده رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان ملكاً عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسري أبرويز وهو الذي أرسل اليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام فرأي ذلك أمراً عظيماً أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل اليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً الى أهل بيته فولى من بعده ابنه أردشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهربزار مرابطاً بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولي أردشير من غير استشارته أقبل بجموعه الى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أردشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لاربعين يوماً من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبروير اخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلي الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التى جاءها رستم وقتلها

لقتلها أباه فرخهرمز أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولي بدلها رجلا من عقب أردشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه الا أياماً وما زال حالهم فى اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمي فى العالم تناصي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الامم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتي انقسمت دولتهم إلي قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر تيودوثيوس الذى ولي أمر الرومان الى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولي من سنة ٣٩٥ الى سنة ٤٠٨ وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لاول العهد الاسلامي هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك والياً فى أفريقية ثم خرج علي الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

كانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد فى هذا البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتي يصل

إلى شواطئ بحر الروم ومرة يطغي عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يسقيان من تلك الاراضي الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامي ماحصل أولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنو شروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتي أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتي وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية : وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة ابان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض) ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فان هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس واعد لذلك عدته ورتب

جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم فى بدر وقد كانت بدر فى مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الامر على ذلك حتى تولي على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهي الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التى راسل فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلي الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو فى ذلك الوقت بأورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٠٧ن الهجرة) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لانها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهي من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الابلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو فى شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب انذار يقول له فيه أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر

بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق خالد جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة : لما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسري يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكراظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم اليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث : تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتي بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذذاك

كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما هو قادم اذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار (١) وعسكر به فسار خالد اليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الامر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا اليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبرى بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفا يقوده الاندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة (٢) ثم أتبعه كسرى جنداً

(١) المذار بينها و بين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان (٢) وهى في الشمال من المذار من ارض كسكر

آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل اليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتي مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الاعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس (١) وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار اليهم خالد وأوقع بهم وقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

ولما فرغ من أليس نهض إلي أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات بادقلي ينتهى اليها فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة: ثم لما علم الآزاذبه مرزبان الحيرة بما كان من خالد فى أمغيشيا علم انه غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الانهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتي لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه الا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الآزاذبة حتي لقيه هو وجنده على فم فرات بادقلي فهزمهم وفجر الفرات وسد الانهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتي عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل

---

(١) قرية من قري الانبار

الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا الى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ الف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة (١) وكتب في شهر ربيع الاول من سنة ١٢: ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الاعراب اسمه شويل كان أسلم على يدي النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا اليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فانه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فاني سأفتدي منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادني قال لا الا على حكمي قالت فلك حكمك فقال لست لام شويل أن نقصتك

---

(١) يظهر ان هذه الجملة مدرجة في الرواية لان التاريخ بالهجرة لم يكن الا أيام عمر

عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف. فأبوا عليه الا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك. ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا ابن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة القوي على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله فى كل سنة وانك قد نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعنا كم فلنا الجزية والا فلا حتي نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ماتم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج (١) الى هرمزجرد (٢) على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً. ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم امراء الثغور: وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين احدهما الى ملك فارس والآخر الى مرازبة الفرس ورؤسائهم وصورة الاول — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغري قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من اطراف العراق

نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا فى أمر ناندعكم وأرضكم ونجوز كم الى غيركم والا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة : وصورة الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا والا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك الوقت فى ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت الا المدافعة عن بهرسير وهي احدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربى من دجلة أمام الايوان الذى كان فى الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته الى ان يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخزاذ ابن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لاغاثة عياض بن غنم الذى أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهي الي الأنبار (١) وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهي الأمر بأن طلب قائد جند الانبار الصلح علي أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء فأجابه الى ذلك خالد وتسلم الانبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر (٢) وبها يومئذ

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ (٢) بلدة قريبة

مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب واياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران ان العرب أعرف بقتال العرب فدعنا وخالداً فقال له صدقت لعمرى لانتم أعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد فى تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن الا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة مهران هرب في جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فانهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيتهم أربعين غلاما يتعلمون الانجيل منهم نصير أبو موسي بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد فى الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالداً وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل اليه خالد هذا الكتاب

من خالد إلى عياض اياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرا منه ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد

من الانبار غربي الكوفة وهى على طرف البرية

فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل فى خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل الا بنى كلب لانهم كانوا احلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي وبعد أن أقام خالد قليلا عاد الى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين الى الحصيد (١) والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتي أتى المصيخ وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم فيها نكالا ثم كانت له وقائع بالثني (٢) والزميل ثم فى الفراض وهى تخوم مابين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن فى الرجوع الي الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجاً معه عدة من اصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتي له من ذلك مالم يتأت لدليل أو ريبال فماتوافى الي الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا وخالد وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجه الا من أفضى اليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك الا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبى بكر بصرفه الى الشام منصرفه من

---

(١) موضع فى اطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الانبار تقام فيه سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة و بقربه الزميل

حجه الى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى أرسله اليه أبو بكر : سر حتي تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قدشجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل مافعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة الى صفر من سنة ١٣ وقدفعل فى هذه السنة مالم يفعله قائد جيش اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الابلة الى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه الى كل موقعة أرادها وكان فى كل عمله فاتحا لا مغيرا فانه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان اذا افتتح بلدا أقام فيه أميرا من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم و يذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان اذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضا بل سرعان ما يخرج طالبا رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده : وعلي الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم عمله ماقاله الهيثم البكائى قال كان

أهل الايام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون مابينها و بين الفراض مايذكرون ماكان يعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

﴿غزو الروم﴾

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن أرسال خالد لافتتاح العراق فان أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الاولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابى عبيدة حمص ولشرحبيل الاردن فسارت هذه الجنود من الطرق التى عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التى سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الاسلامية اليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فاراد أن يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ماالرأى؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا اذا اجتمع

لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لاحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك (١) ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرواً فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه بلغ ذلك هرقل فكتب الى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة ٢ وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسمين وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافقهم الجنود الاسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الامر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبابكر في شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم وأمرهم أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فخرج بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ماحكاه الطبرى ٢٤٠ ألفا

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله

---

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الاردن (٢) واد في أرض حوران

لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا اجهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له
ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لا يحل
ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم
تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته، قالوا فهات فما الرأي قال ان
أبابكر لم يبعثنا الاَّ وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذى كان ويكون لكان قد جمعكم
ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد
علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان
لا ينتقصه منه ان دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه ان دانوا له ان
تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فان هؤلاء
قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان
هزمونا لم تفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر
غداً والآخر بعد غد حتي يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم فأمروه فعبي خالد
الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش الى ثمانية وثلاثين كردوسا
(فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس
وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس
وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيسا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو
الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الالف وجعل للجيش قاصاً
يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله
الله انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم

ان هذا يوم من أيامك اللهمّ أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الاشقر براء من توجيه وانهم أضعفوا في العدد (الاشقر فرسه)

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمر ففعلا وكان القعقاع يرتجز

يا ليتني ألقاك فى الطراد قبل اعتزام الجحفل الوراد

وأنت فى حلبتك الوراد

ويرتجز عكرمة

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على مكرمة أحامي

وكانت هذه الاراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى فى تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا الى الواقوصة من ورائهم حتى هوي فيها كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار

ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهل فانه كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعا قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتي أثبتوا جميعا جراحا وقتلوا الا من برأمنهم وأتي خالد عند الصبح بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزم نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الاسلامية وقال سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن أمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائدا عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره الى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتي انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب الى أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم الحمد لله الذي قضي على أبي بكر الموت وكان أحب إلي من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض

الى من أبي بكر ثم ألزمني حبه

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكثير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية يقولون ان ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً فى فوزهم هذا الفوز السريع: كان يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبأ أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الأول ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة: وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثاني أنه واثق بالعاقبة فى الاخرى فهو أن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وان ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو احدى الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا واسعاد دينه أضف الى ذلك ما وفقوا اليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من من بعدهم أن يقدموا أقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة فى تاريخ أبي بكر: والى هنا انتهت الاعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتى الروم والفرس فى أيام أبى بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

ادارة البلاد في عهد أبى بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التى تحت الادارة الاسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها الى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الامير اقامة الصلاة والفصل في القضايا واقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لان أبابكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الامراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذى ولي فتحها بعد الردة

(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد

(٥) خولان وواليها يعلى بن أمية

(٦) زبيد ورمع وواليها أبو موسى الأشعري

(٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل

(٨) نجران وواليها جرير بن عبدالله البجلي

(٩) جرش وواليها عبدالله بن ثور

(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمي

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الامر فيها

ولم يكن لابى بكر وزير وانما كان عمر على القضاء وأبو عبيدة أميناً

لبيت المال قبل أن يسيره الى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الاخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لاول مرة فى مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن فى مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالامر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبى بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالى ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذى فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (— بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده فمن هذا يفهم أن المبدأ الذى اختطه أبو بكر هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شىء من التجارات عن النظر فيما وكل اليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر

أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ كان فيه شبهة فى نظر أبي بكر فأمر برده الى بيت المال بعد وفاته

أرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا ياخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوى فى العطاء لا يفضل أحداً على أحد

أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطي العمال أرزاقهم ويوزع ما بقي على من عينوا فى الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة أبى بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوما وتوفي فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلاً الى الجهة الشرقية

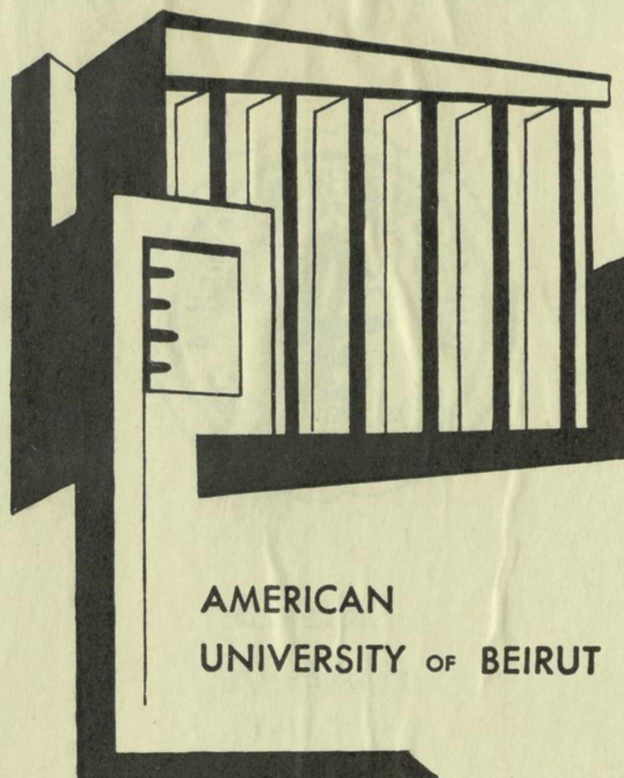
﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله المحاضرة الحادية والعشرون ﴾

١

فهرس

(تمت)




AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT